

حبَّات العقد

وَقصص أخرى ١

الدّكتور علي عبد المنعم عبد الحميد





مَكتبة لبنَان نَاشِرُون



إشراف الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

١٠ أ ، شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل

زقاق البلاط - ص. ب : ٩٢٣٢ - ١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٥

رقم الإيداع ١٩٩٥/٧١٠٠

الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧-١٦-٠١٧٦-٨

تصميم : أحمد سامي

رسوم : ممدوح الفرماوي

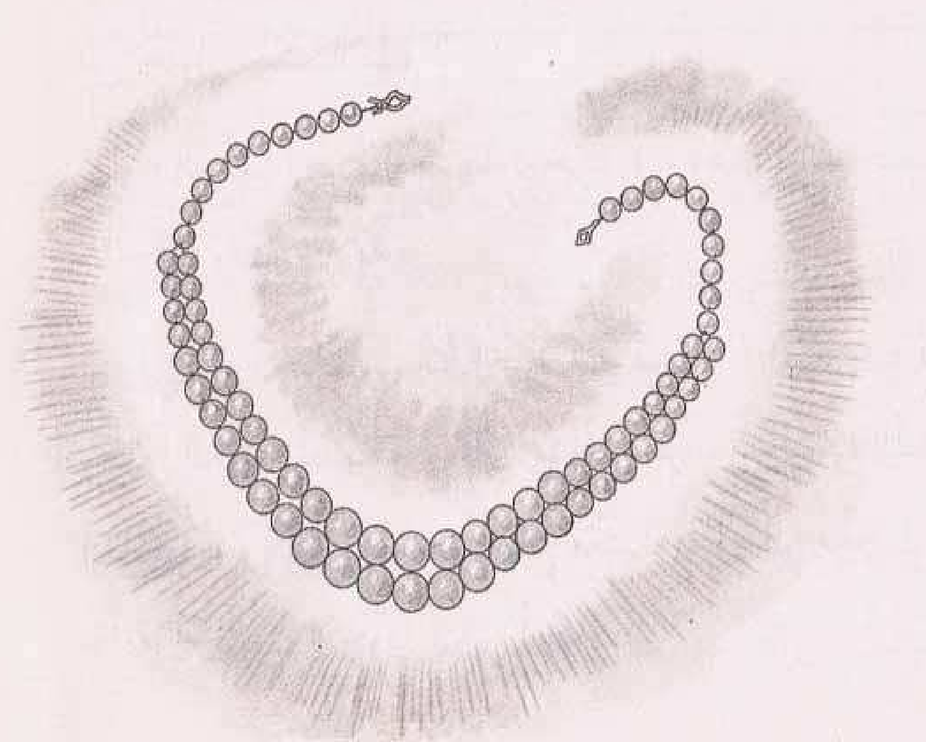
طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة



حبات العقد

وقصص أخرى

الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد



مكتبة لبنان ناشرون   الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

أجْمَلُ الجمال

كانَتْ هُناكَ فَتاةٌ اسْمُها « عَثْمَةُ » البَجَلِيَّةُ ، وَقَدْ مَنَحَها اللهُ عَقْلاً راجِحًا ، وذَكاءً رائِعًا ، وفِطْنَةً مُتَوَقِّدَةً ، وبَديهَةً طَيِّعَةً .

وكانَ قَوْمُها يَسْتَمِعونَ لِمَشورَتِها ، وَيَقْبَلونَ نَصيحَتَها ، فَلا يَقْطَعونَ أَمْرًا دونَ رَأْيِها ، وَيَسْتَجيبونَ لِما تَقْتَرِحُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ حُلولٍ لِمُشْكِلاتِهِمْ .

وَكانَ لَها أُخْتٌ اسْمُها « خَوْدٌ » ، وَهَبَها اللهُ جَمالاً ساحِرًا ، وَفِتْنَةً خَلاّبَةً .

وَفي يَوْمٍ جاءَ سَبْعَةُ إِخْوَةٍ مِنْ قَبيلَةِ « الأَزْد » ، قَدْ رَكِبوا الخَيْلَ المُطَهَّمَةَ ، عَلى سُروجٍ مُزَيَّنَةٍ . وَلَبِسوا الثِّيابَ الفاخِرَةَ ، وَكُلُّهُمْ صاحِبُ قامَةٍ مُعْتَدِلَةٍ ، وَمَنْظَرٍ مُعْجِبٍ – جاءوا يَخْطُبونَ « خَوْدًا » إِلى أَبيها .

اِسْتَقْبَلَهُمُ الرَّجُلُ فَأَحْسَنَ اسْتِقْبالَهُمْ ، وَأَنْزَلَهُمْ فَأَكْرَمَ مُنْزَلَهُمْ ، ثُمَّ قالَ لَهُمْ : « اِسْتَريحوا هَذِهِ اللَّيْلَةَ ، فَإِذا جاءَ الصَّباحُ فَتَعالَوْا إِلى مَجْلِسي . »

ناموا لَيْلَتَهُمْ هانِئينَ ، وَكُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ يَتَمَنّى أَنْ تَكونَ « خَوْدٌ » تِلْكَ الفَتاةُ الجَميلَةُ ، الحَسيبَةُ النَّسيبَةُ – يَتَمَنّى أَنْ تَكونَ لَهُ زَوْجَةً .

وَلَمّا أَقْبَلَ الصَّباحُ ، وَاسْتَيْقَظوا مِنْ نَوْمِهِمْ فَرِحينَ مُسْتَبْشِرينَ ، أَشارَتْ عَلَيْهِمْ حاضِنَتُهُمُ الَّتي سَهِرَتْ عَلى تَرْبِيَتِهِمْ ، وَعَمِلَتْ عَلى تَثْقيفِهِمْ وَتَأْديبِهِمْ – أَشارَتْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَلْبَسوا أَحْسَنَ ما عِنْدَهُمْ مِنْ ثِيابٍ ، وَأَنْ يَتَزَيَّنوا بِأَفْضَلِ ما لَدَيْهِمْ مِنْ زينَةٍ ، وَأَنْ يَمُرّوا واحِدًا بَعْدَ الآخَرِ عَبْرَ الفِناءِ الَّذي يُطِلُّ عَلَيْهِ خِباءُ « خَوْدٍ » ؛ لَعَلَّها تَرْقُبُهُمْ وَتَنْظُرُ ما هُمْ عَلَيْهِ مِنْ جَمالٍ وَجَلالٍ . يَفْعَلونَ ذَلِكَ وَهُمْ في طَريقِهِمْ إِلى مَجْلِسِ أَبيها .

اِطْمَأَنَّ المَجْلِسُ بِالرَّجُلِ وَضَيْفِهِ ، وَنَظَرَ إِلَيْهِمْ فَأَعْجَبَهُ مَنْظَرُهُمْ ، وَراقَهُ سَمْتُهُمْ ، وَأَخَذَ يُرَحِّبُ بِهِمْ ، وَيَسْتَوْثِقُ مِنْ

راحَتِهِمْ في ضِيافَتِهِ ، ثُمَّ سَأَلَهُمْ عَنِ الأَمْرِ الَّذي جَعَلَهُمْ يَقْصِدونَهُ ، وَماذا يَسْتَطيعُ أَنْ يَقْضِيَ لَهُمْ مِنْ حاجَةٍ ؟

قالوا : « بَلَغَنا أَنَّ لَكَ بِنْتًا تُدْعى « خَوْدًا » ذاتَ أَدَبٍ وَجَمالٍ وَجَلالٍ ، وَنَحْنُ – كَما تَرى – شَبابٌ لَنا حَسَبٌ رَفيعٌ ، وَنَسَبٌ أَصيلٌ ، فَنَحْنُ أَبْناءُ « مالِكِ بْنِ غُفَيْلَةَ الأَزْدِيِّ » ، وَكُلُّنا فارِسٌ شُجاعٌ ، كَريمٌ جَوادٌ ، يَحْمي القَبيلَةَ ، وَيَذودُ عَنِ العَشيرَةِ ، وَيَصونُ الدِّيارَ ، وَيُؤَمِّنُ الجارَ ، وَيُعْطي مَنْ يَقْصِدُهُ ، وَيَبْتَدِئُ بِالمَعْروفِ ، وَلا يَنْتَظِرُ عَلَيْهِ جَزاءً وَلا شُكورًا . »

قالَ أَبوها : « لا أَحَدَ مِنَ القَبائِلِ يَجْهَلُ « مالِكَ بْنَ غُفَيْلَةَ الأَزْدِيَّ » ، وَالجَميعُ يَعْرِفونَ لَهُ مَكانَتَهُ السّامِيَةَ ، وَمَنْزِلَتَهُ الرَّفيعَةَ ، وَيُقَدِّرونَ حَسَبَهُ وَنَسَبَهُ . وَأَنْتُمْ أَبْناؤُهُ ، فَأَنْتُمْ خِيارٌ مِنْ خِيارٍ ، أَصْحابُ فَضْلٍ واسِعٍ . أَقيموا عِنْدَنا عَلى الرُّحْبِ وَالسَّعَةِ حَتّى نَسْتَشيرَ « خَوْدًا » في أَمْرِها ، وَنَرى رَأْيَنا . »

دَخَلَ الرَّجُلُ خِباءَ ابْنَتِهِ « خَوْدٍ » فَوَجَدَها جالِسَةً ، قَدْ

سَرَحَتْ بِبَصَرِها إِلى بَعيدٍ . نَظَرَ إِلَيْها فَأَدْهَشَهُ جَمالُها الفَتّانُ ، وَكَأَنَّهُ يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ عَلى هَذا الجَمالِ السّاحِرِ ، الَّذي حَبا اللهُ بِهِ ابْنَتَهُ !

كانَتْ « خَوْدٌ » تُعْطي ظَهْرَها إِلى بابِ الخِباءِ ، فَلَمّا أَحَسَّتْ حَرَكَةً تَدِبُّ داخِلَهُ الْتَفَتَتْ مَذْعورَةً فَكانَتْ في ذُعْرِها أَجْمَلَ مِنْها في صَمْتِها وَسُكونِها .

قالَ لَها أَبوها : « أَيْ بُنَيَّةُ ، لَقَدْ جاءَ هَؤُلاءِ الشَّبابُ ، أَبْناءُ « مالِكِ بْنِ غُفَيْلَةَ الأَزْدِيِّ » يَخْطُبونَكِ ، كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ يُريدُكِ زَوْجًا لَهُ – فَماذا تَرَيْنَ ؟ »

قالَتْ « خَوْدٌ » : « زَوِّجْني ، يا أَبي ، مَنْ تَراهُ كُفْئًا لي في الحَسَبِ وَالنَّسَبِ ، وَلا تُبالِغْ فيما تَطْلُبُهُ مَهْرًا لي ! إِنَّني لَمْ أَجْلِسْ إِلَيْهِمْ ، وَلا أَسْتَطيعُ أَنْ أَعْرِفَ ما تَنْطَوي عَلَيْهِ نُفوسُهُمْ ، وَلَمْ أَخْتَبِرْ شَجاعَتَهُمْ وَفُروسِيَّتَهُمْ ، وَلَمْ أُدْرِكْ ذَكاءَ عُقولِهِمْ ، وَلا نُضْجَ تَفْكيرِهِمْ . وَلَكِنَّ نَظَري لَمْ يُخْطِئْ كَمالَ أَجْسامِهِمْ ، وَاعْتِدالَ قامَتِهِمْ ، وَحُسْنَ مَنْظَرِهِمْ ، وَجَمالَ هَيْئَتِهِمْ ؛ فَقَدْ مَرّوا أَمامَ خِبائي ، وَهُمْ

في طَرِيقِهِمْ إلى مَجْلِسِكَ ، وَلَعَلَّ هَذا ما كانوا يَقْصِدونَ .

خَرَجَ الرَّجُلُ إلى الإخْوَةِ السَّبْعَةِ ، فَشَخَصَتْ أبْصارُهُمْ إلَيْهِ ، وَتَعَلَّقَتْ عُيونُهُمْ بِهِ ، يَتَرَقَّبونَ – في لَهْفَةٍ وَشَوْقٍ – كَلِمَتَهُ ، فَقالَ لَهُمْ : « دُلّوني عَلى أفْضَلِكُمْ . »

وَهُنا تَقَدَّمَتْ حاضِنَتُهُمْ ، وَاسْمُها « الشَّعْثاءُ » ، وَأجالَتْ بَصَرَها في الإخْوَةِ السَّبْعَةِ ، وَكُلُّهُمْ يَتَطَلَّعونَ إلَيْها ، وَكُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ يَوَدُّ أنْ تَجْعَلَهُ أفْضَلَ إخْوَتِهِ ؛ لِيَظْفَرَ « بِخَوْدٍ » زَوْجًا .

قالَتِ الحاضِنَةُ ، وَهِيَ تُوَجِّهُ حَديثَها لِلرَّجُلِ : « أنا أدُلُّكَ عَلى أفْضَلِهِمْ ؛ فَقَدْ رَبَّيْتُهُمْ صِغارًا ، وَتَعَهَّدْتُهُمْ كِبارًا ، وَتَوَلَّيْتُ تَعْليمَهُمْ وَتَأديبَهُمْ ؛ فَأنا أخْبَرُ النّاسِ بِهِمْ . »

اِلْتَفَتَ الرَّجُلُ إلى الحاضِنَةِ ، وَانْتَظَرَ حَديثَها .

قالَتِ الحاضِنَةُ : « كُلُّهُمْ إخْوَةٌ ، وَكُلُّهُمْ قُدْوَةٌ وَأُسْوَةٌ .

أمّا أكْبَرُهُمْ سِنًّا فَهُوَ « مالِكٌ » : جَريءٌ شُجاعٌ فاتِكٌ ،

لا يَخْشى المَهالِكَ ، يُدْرِكُ الخَيْلَ مَهْما قَوِيَتْ سَنابِكُها ، يَخافُهُ العَدُوُّ وَيَعْمَلُ لَهُ حِسابًا ، وَيَهابُهُ الصَّديقُ وَيَعْتَزُّ بِصَداقَتِهِ .

« وَأمّا الَّذي يَليهِ فَـ « الْعَمْرو » : جَوادٌ كَريمٌ كالبَحْرِ ، شُجاعٌ فاتِكٌ كَالأسَدِ ، لا يَرُدُّ سائِلاً ، وَلا يَمْنَعُ طالِبًا ، يَغْشاهُ الخائِفُ فَيَجِدُ عِنْدَهُ حاجَتَهُ مِنَ الحِمايَةِ والأمْنِ .

« وَأمّا الَّذي يَليهِ فَـ « عَلْقَمَةُ » : وَهُوَ شابٌّ قَوِيُّ الشَّكيمَةِ ، فَصيحُ اللِّسانِ ، يَخْلُبُ بِفَصاحَتِهِ الألْبابَ ، وَيَسْحَرُ بِبَيانِهِ العُقولَ .

« وَأمّا الَّذي يَليهِ فَـ « عاصِمٌ » : سَيِّدٌ رَقيقٌ ناعِمٌ ، وَلكِنَّهُ حازِمٌ صارِمٌ ، يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ في مَوْضِعِهِ ، يُحارِبُ أعْداءَهُ فَيَغْلِبُهُمْ ، وَيَغْنَمُ جَيْشُهُ مِنْهُمْ ، في حينِ يَحْفَظُ حَقَّ الجارِ ، وَيَسْلَمُ مِنْ أذاهُ ، وَيَشْعُرُ بِالأمانِ في حِماهُ .

« وَأمّا الَّذي يَليهِ فَـ « ثَواب » ، ناضِجُ الفِكْرِ ، سَريعُ الجَوابِ ، مَتينُ الرَّأيِ ، قَريحَتُهُ سَيّالَةٌ ، وَبَديهَتُهُ مِطْواعَةٌ .

« وَأمّا الَّذي يَليهِ فَـ « مُدْرِكٌ » : وَهُوَ شابٌّ لا يَعْرِفُ

البُخْلَ ، وَلا يَدْري الشُّحَّ ، يَبْذُلُ ما في يَدَيْهِ ، وَلا يَمُدُّ عَيْنَيْهِ إلى ما في يَدِ غَيْرِهِ ، يُفْني مالَهُ وَيُهْلِكُهُ ، لِعَظَمَةِ جُودِهِ وَكَرَمِهِ .

« وَأَمّا الَّذي يَليهِ فَـ « جَنْدَلٌ » : ذو بَأْسٍ شَديدٍ ، وَقَلْبٍ أَشَدَّ مِنَ الحَديدِ ، لا يَجْبُنُ في يَوْمِ اللِّقاءِ ، وَلا يَتَهَيَّبُ مُنازَلَةَ الفُرْسانِ ، وَلا يُذِلُّ الأَسيرَ ، يُعْطي بِسَخاءٍ ،

قالَتْ « عَثْمَةُ » لأُخْتِها : « يا أُخْتي ، إنَّنا رَأَيْنا أَجْسادَهُمْ فارِهَةً فَأَعْجَبَتْنا ، وَأَبْصَرْنا زينَتَهُمْ فَراقَتْنا ، وَلَكِنَّنا لَمْ نَعْرِفْ أَفْكارَهُمْ ، وَلَمْ نَخْتَبِرْ عُقولَهُمْ ، وَلا عِلْمَ لَنا بِصِفاتِهِمْ إلا مِنْ لِسانِ حاضِنَتِهِمْ . اِسْمَعي مِنّي كَلِمَةً : إنَّ الفَتاةَ إذا تَزَوَّجَتْ مِنْ غَريبٍ عَنْ قَوْمِها – نَظَرَ إلَيْها أَهْلُهُ وَعَشيرَتُهُ عَلى أنَّها دَخيلَةٌ عَلَيْهِمْ ، غَريبَةٌ عَنْهُمْ ،

وَجارِيَتُهُ وَعَبْدُهُ – مَعَ مَنْ في المَجْلِسِ – يُنْصِتونَ ، وَيُحْسِنونَ الإنْصاتَ .

فَرَغَ الشّاعِرُ مِنْ إنْشادِ قَصيدَتِهِ ، وَ وَجْهُهُ يَتَهَلَّلُ بِشْراً وَيَفيضُ سُروراً ، وَقَلْبُهُ يَرْقُصُ طَرَباً : إنَّ الخَليفَةَ صامِتٌ ، لَعَلَّ القَصيدَةَ أَعْجَبَتْهُ ، وَفُتِنَ بِأَلْفاظِها ، واسْتَرَقَتْ سَمْعَهُ موسيقاها ، وَسَحَرَتْهُ صُوَرُها وَبَلاغَتُها . وَلَكِنَّ صَوْتَ الخَليفَةِ يَأْتيهِ فَيُخْرِجُهُ مِنْ فَرْحَتِهِ ، وَيُبَدِّلُ سُرورَهُ غَمّاً وَكَمَداً .

قالَ الخَليفَةُ : « هَذِهِ القَصيدَةُ لَيْسَتْ لَكَ ؛ فَقَدْ سَمِعْتُها مِنْ قَبْلُ ، وَإنْ شِئْتَ أَعَدْتُها عَلى مَسامِعِكَ .»

وَلَمْ يَنْتَظِرِ الخَليفَةُ المَنْصورُ مِنَ الشّاعِرِ جَواباً ؛ بَلْ راحَ يُعيدُ القَصيدَةَ ، لَمْ يُسْقِطْ كَلِمَةً ، وَلَمْ يَخْرِمْ مِنْها حَرْفاً . وَحينَئِذٍ أُسْقِطَ في يَدِ الشّاعِرِ ، وَلَمْ يَنْبِسْ بِكَلِمَةٍ .

قالَ المَنْصورُ : « إنَّ الأَمْرَ لا يَقِفُ عِنْدَ ذَلِكَ ، فَإنَّ جارِيَتي تَحْفَظُها عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ . هَيّا أَيَّتُها الجارِيَةُ ، أَنْشِدينا هَذِهِ القَصيدَةَ .»

أَطاعَتِ الجارِيَةُ أَمْرَ مَوْلاها ، وَراحَتْ تُنْشِدُ القَصيدَةَ لَمْ تُسْقِطْ مِنْها كَلِمَةً ، وَلَمْ تَخْرِمْ مِنْها حَرْفاً كَذَلِكَ ؛ فَقَدْ كانَتْ تَحْفَظُ بَعْدَ أَنْ تَسْتَمِعَ مَرَّتَيْنِ .



وَهُنا تَقَدَّمَ العَبْدُ ، وَقالَ : « يا مَوْلايَ ، إنَّني أحْفَظُ هَذِهِ القَصيدَةَ ؛ فَقَدْ سَمِعْتُها مِنْ قَبْلُ ، وإذا أذِنَ مَوْلايَ أنْشَدْتُها .»

قالَ المَنْصورُ : « هاتِ ما عِنْدَكَ .»

وَانْطَلَقَ العَبْدُ يُنْشِدُ القَصيدَةَ ، لَمْ يُسْقِطْ مِنْها كَلِمَةً ، وَلَمْ يَخْرِمْ مِنْها حَرْفًا كَذَلِكَ ؛ فَقَدْ كانَ يَحْفَظُ بَعْدَ ثَلاثِ مَرّاتٍ .

بُهِتَ الشّاعِرُ ، وَخَرَجَ مِنْ مَجْلِسِ المَنْصورِ يَجُرُّ أذْيالَ الخَيْبَةِ والخِذْلانِ ، وَتَغْلي مَراجِلُ الضّيقِ في صَدْرِهِ ، وَتَتَوَقَّدُ نيرانُ السَّخَطِ في قَلْبِهِ .

إنَّ القَصيدَةَ قَصيدَتُهُ ، لَمْ يَسْرِقْها مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَمْ يَسْمَعْها مِنْهُ أحَدٌ ، فَما هَذا الَّذي حَدَثَ ؟ وَمَنْ هَذا الشّاعِرُ الَّذي تَوارَدَتْ خَواطِرُهُ مَعَهُ حَتّى جاءَتْ قَصيدَتُهُ مُطابِقَةً لِقَصيدَتِهِ تَمامَ التَّطابُقِ ؟

تَزاحَمَتِ الخَواطِرُ في قَلْبِهِ ، وَتَناوَشَتِ الأفْكارُ في

صَدْرِهِ ، وَهُوَ يُغِذُّ السَّيْرَ في طَريقِهِ إلى بَيْتِهِ ، يَكْتُمُ خَيْبَتَهُ ، وَيُداري خُسْرانَهُ . وَلَكِنْ .. انْقَدَحت في ذِهْنِهِ فِكْرَةٌ : لِماذا لا يَكونُ الخَليفَةُ سَريعَ الحِفْظِ ، قَوِيَّ الذّاكِرَةِ ، وَكَذَلِكَ جارِيَتُهُ وَعَبْدُهُ ، وَيَكونُ قَدْ أعَدَّ لِلأمْرِ إعْداداً مُحْكَماً ؛ حَتّى يَسْخَرَ مِنّي ، وَيُخْرِجَني مِنْ مَجْلِسِهِ مَدْحوراً ، مَوْصوماً بِعارِ السَّرِقَةِ وَالادِّعاءِ ، مَحْروماً مِنَ الجائِزَةِ وَالعَطاءِ ؟

إنَّ عَلَيَّ أنْ أعيدَ الكَرَّةَ ، بَعْدَ أنْ أحْتاطَ لِلأمْرِ ، وآخُذَ حِذْري مِنْ حِفْظِ الخَليفَةِ وَمَنْ مَعَهُ .

وَفي الوَقْتِ ذاتِهِ كانَ الخَليفَةُ المَنْصورُ يَضْحَكُ مِلءَ شِدْقَيْهِ ؛ فَقَدْ نَجَحَتْ خُطَّتُهُ ، وَسَخِرَ مِنَ الشّاعِرِ ، وَهَزِئَ بِهِ ، وأخْرَجَهُ مِنْ عِنْدِهِ دونَ أنْ يَنالَ شَيْئًا غَيْرَ الذُّلِّ وَالانْكِسارِ .

قَرَّ عَزْمُ الشّاعِرِ عَلى أنْ يُعيدَ الكَرَّةَ ، فَأتى الخَليفَةَ المَنْصورَ ذاتَ يَوْمٍ ، وَقَدْ أعَدَّ قَصيدَةً طَويلَةً ، اجْتَهَدَ اجْتِهاداً بالِغًا في كِتابَتِها عَلى قِطَعٍ مِنَ الرُّخامِ ، كَما

اجْتَهَدَ في أنْ يمْلأها بِالكَلماتِ الغَريبَةِ الَّتي يَثْقُلُ عَلى الآذانِ سَماعُها ، وَلا تَجِدُ طَريقَها لِتَعْلَقَ بِالقُلوبِ ، كَما اجْتَهَدَ في أنْ يَخْتارَ لَها وَزْناً موسيقِيًّا لا تَسْتَريحُ إلَيْهِ النَّفْسُ . كُلُّ ذَلِكَ كَيْ يَأمَنَ سُرْعَةَ حِفْظِ الخَليفَةِ وَجارِيَتِهِ وَعَبْدِهِ – فَسَوْفَ يَشُقُّ عَلَيْهِمْ حِفْظُها ، وَيَحْتاجونَ لِكَثيرٍ مِنَ المُعاوَدَةِ وَالتَّكْرارِ حَتّى تَأنَسَ إلى كِلماتِها آذانُهُمْ ، فَتَجِدَ طَريقَها إلى ذاكِرَتِهِمْ .

اِسْتَأذَنَ الشّاعِرُ عَلى الخَليفَةِ المَنْصورِ فَأذِنَ لَهُ ، وَبَعْدَ أنْ حَيّا أميرَ المُؤْمِنينَ ، قالَ : « لَقَدْ أعْدَدْتُ قَصيدَةً ، فَهَلْ يَأذَنُ لي مَوْلايَ في إنْشادِها ؟ »

قالَ الخَليفَةُ : « نَعَمْ ، عَلى شَرْطِنا السّالِفِ . »

قالَ الشّاعِرُ : « حُبًّا وَكَرامَةً ، يا أميرَ المُؤْمِنينَ . »

طَفِقَ الشّاعِرُ يُنْشِدُ قَصيدَتَهُ ، وَما إنْ تَجاوَزَ بَيْتَيْنِ أوْ ثَلاثَةً حَتّى تَمَلْمَلَ الخَليفَةُ في مَجْلِسِهِ ، وَبَدَتْ سَحابَةٌ مِنَ الكَدَرِ تُغَشّي وَجْهَهُ ، والشّاعِرُ يَتَمادى في إنْشادِهِ ، وَيُلَوِّنُ

نَبَراتِ صَوْتِهِ ، وَيُوَقِّعُ كَلِماتِهِ ، وَالخَليفَةُ يَتَمَيَّزُ مِنْ غَيْظِهِ ، وَيَكادُ يَتَلَوّى مِنْ كَمَدِهِ ؛ وَلَكِنَّهُ شَرْطُ الخَليفَةِ وَ وَعْدُهُ ، لا يَسْتَطيعُ لَهُ إخْلافاً ، وَلا عَلَيْهِ امْتِناعاً .

أنْهى الشّاعِرُ قَصيدَتَهُ المُطَوَّلَةَ ، المَكْتوبَةَ عَلى الرُّخامِ ، فَتَرَقَّبَتِ الجارِيَةُ والعَبْدُ قَوْلَ الخَليفَةِ المَنْصورِ ، وَلَكِنَّ الخَليفَةَ لَمْ يَكُنْ سَمْعُهُ قَدِ الْتَقَطَ مِنْ كَلِماتِ القَصيدَةِ إلا قَليلاً ؛ فَقَدْ تَأبّى عَلَيْهِ غَريبُها ، وامْتَنَعَ عَلَيْهِ وَزْنُها ؛ فَلَمْ يَسْتَطِعْ لَها مُعاوَدَةً وَلا إنْشاداً .

أَسْقَطَ في يَدِ الخَليفَةِ هَذِهِ المَرَّةَ ، وَفازَ الشّاعِرُ بِجائِزَةٍ ذَهَبِيَّةٍ قَيِّمَةٍ ، عَوَّضَتْهُ خُسْرانَ ما فاتَ ، وَبَدَّلَتْهُ مِنْ ذِلَّتِهِ وَانْكِسارِهِ عِزَّةً وَفَخاراً .

حَديثُ العَصا

حَدَّثَ الشَّيْخُ الشَّرَفِيُّ قالَ :

أَرَدْتُ السَّفَرَ مِنْ بَلْدَتي المَوْصِلِ إلى بِلادِ الرَّقَّةِ عَلى نَهْرِ الفُراتِ ، وَكانَتِ الحَميرُ مِنْ بَيْنِ الوَسائِلِ الَّتي يَسْتَعينُ بِها النّاسُ عَلى الأَسْفارِ القَصيرَةِ ، فَذَهَبْتُ إلى المَكانِ الَّذي يَسْتَأْجِرُ النّاسُ مِنْهُ هَذِهِ الدَّوابَّ ، وَاخْتَرْتُ حِماراً قَوِيًّا ، وَاتَّفَقْتُ مَعَ المُكاري صاحِبِهِ .

وَجَدْتُ عِنْدَ المُكاري شابًّا فَتِيًّا ، بَهِيَّ الطَّلْعَةِ ، وَسيمَ الشَّكْلِ ، تَلوحُ عَلى وَجْهِهِ آياتُ الذَّكاءِ والفِطْنَةِ ، يَسْتَأْجِرُ مِنَ المُكاري حِماراً ، يَمْضي بِهِ في الطَّريقِ الَّتي سَأَمْضي فيها ، فَقُلْتُ في نَفْسي : « نِعْمَتِ الصُّحْبَةُ – صُحْبَةُ هَذا الشّابِّ القَوِيِّ الذَّكِيِّ ! »

رَكِبْنا حِمارَيْنا ، وَمَضَيْنا في طَريقِ السَّفَرِ ، وَالمُكاري

مِنْ خَلْفِنا ، يَزْجُرُ الحِمارَيْنِ ، وَيَحُثُّهُما عَلى السَّيْرِ وَنَظَرْتُ إلى الشّابِّ فَوَجَدْتُهُ يَحْمِلُ مَعَهُ مِزْوَداً يَضَعُ فيهِ طَعامَهُ ، ورِكْوَةً يَشْرَبُ فيها ماءَهُ ، وَعَصاً لا يُفارِقُها وَلا تُفارِقُهُ . قُلْتُ لَهُ – وَقَدْ طابَتْ لَنا الرُّفْقَةُ ، وَتَشَعَّبَ بَيْنَنا الحَديثُ :

« يا بُنَيَّ ، إنَّكَ تَحْمِلُ مَعَكَ ثَلاثَةَ أَشْياءَ ، أَمّا المِزْوَدُ فَقَدْ عَرَفْتُ فائِدَتَهُ وَقيمَتَهُ ، وَكَذَلِكَ الدَّلْوُ أَوِ الرِّكْوَةُ ، لَكِنْ لِماذا هَذِهِ العَصا الَّتي تَحْرِصُ عَلى مُصاحَبَتِها ؟ »

قالَ الفَتى : « تَعْلَمُ ، يا عَمِّ ، أَنَّ اللهَ – عَزَّ وَ جَلَّ – قَدْ جَعَلَ بَراهينَ سَيِّدِنا موسى (عَلَيْهِ السَّلامُ) وَمُعْجِزاتِهِ ، وَمَآرِبَهُ وَغاياتِهِ – في العَصا . »

وَمَضَيْنا في الطَّريقِ ، وَأَنا أَضْحَكُ في نَفْسي مِنْ جَوابِهِ وَأَتَهَكَّمُ عَلَيْهِ ، فَأَيُّ فَرْقٍ واسِعٍ بَيْنَ هَذا الفَتى وَبَيْنَ سَيِّدِنا موسى (عَلَيْهِ السَّلامُ) ؟

وَتَأَخَّرَ عَنّا المُكاري ، فَأَبْطَأَ الحِمارانِ في سَيْرِهِما ، وَلَكِنَّ الفَتى غَمَزَ حِمارَهُ بِعَصاهُ ، فَانْطَلَقَ يَعْدو ، وَ وَقَفَ حِماري

لا يَتَحَرَّكُ ، وَلَيسَ مَعي ما أسوقُهُ بِهِ ، وَأُرْغِمُهُ عَلى السَّيْرِ . وَلَبِثْتُ كَذَلِكَ حَتّى بَلَغَني المُكاري ، فَزَجَرَ حِماري بِعَصاهُ ، فَانْطَلَقَ إِثْرَ صاحِبي ، وَلَكِنَّ الفَتى وَصَلَ المَكانَ الَّذي سَنَنْزِلُ فيهِ لِنَنالَ قِسْطاً مِنَ الرّاحَةِ قَبْلي ، فَاسْتَراحَ وَأَراحَ حِمارَهُ ؛ فَقُلْتُ : « هَذِهِ أَوَّلُ فائِدَةٍ مِنْ فَوائِدِ العَصا وَمَزاياها .»

فَلَمّا كانَ الغَدُ خَرَجْنا مُشاةً ، فَكانَ الفَتى إذا أَدْرَكَهُ التَّعَبُ اسْتَنَدَ إلى عَصاهُ ، وَتَوَكَّأَ عَلَيْها ، وَلَيْسَ مَعي ما أَسْتَعينُ بِهِ عَلى المَشْيِ ، حَتّى إذا ما بَلَغْنا المَكانَ الَّذي نَقْصِدُهُ كُنْتُ قَدْ تَفَسَّخْتُ مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ وَالكَلالِ ، وَكانَ بِهِ فَضْلٌ مِنْ قُوَّةٍ ، وَبَعْضٌ مِنْ عافِيَةٍ .

فَقُلْتُ : « وَهَذِهِ ثانِيَةٌ مِنْ فَوائِدِ العَصا وَمَزاياها .»

فَلَمّا كانَ اليَوْمُ الثّالِثُ وَقَعَتْ أَقْدامُنا عَلى جُحْرِ حَيَّةٍ قَوِيَّةٍ ناشِطَةٍ ، خَبيثَةٍ ماكِرَةٍ ، ما إنْ خَرَجَتْ مِنْ جُحْرِها ، وَرَأَيْتُ مَنْظَرَها – حَتّى امْتَلأَتْ نَفْسي رُعْباً ، وَ وَلَّيْتُ مِنْها فِراراً ، وَتَرَكْتُهُ لَها ، وَتَرَكْتُها لَهُ . وَلَكِنَّهُ لَمْ يَخَفْ كَما

خِفْتُ ، وَلَمْ يَفِرَّ كَما فَرَرْتُ ، وَإِنَّما ثَبَتَ لَها ، وَأَهْوى بِعَصاهُ عَلى رَأْسِها ، فَقَضى عَلَيْها .

قُلْتُ : « وَهَذِهِ ثالِثَةٌ مِنْ فَوائِدِ العَصا وَمَزاياها .»



وَلَمّا كانَ اليَوْمُ الرّابِعُ خَرَجْنا إلى طَرَفِ الصَّحْراءِ ، فاشْتَهَتْ نَفْسي أَكْلَ اللَّحْمِ ، فَأَخْبَرْتُهُ بِما يَدورُ في صَدْري ، وَتَشْتَهيهِ نَفْسي . وَحانَتْ مِنْهُ الْتِفاتَةٌ إلى يَمينِهِ ، فَرَأى أَرْنَباً بَرِّيَّةً تَجْري ، فَما كانَ مِنْهُ إلا أنْ قَذَفَها بِعَصاهُ ، فَأَصابَتْ رِجْلَها ، فَعَجَزَتْ عَنِ السَّيْرِ ، فَأَدْرَكْناها وَذَبَحْناها .

قُلْتُ : « وَهَذِهِ رابِعَةٌ مِنْ فَوائِدِ العَصا وَمَزاياها .»

ثُمَّ أَقْبَلْتُ عَلَيْهِ ، وَقُلْتُ لَهُ : « لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ناراً لَشَوَيْناها ، وَلَمْ نَنْتَظِرْ حَتّى نَعودَ إلى المَكانِ الَّذي نَنْزِلُ فيهِ .»

فَأَخْرَجَ الفَتى عوداً صَغيراً مِنْ مِزْوَدِهِ ، وَحَكَّهُ حَكّاً قَوِيّاً بِعَصاهُ ، فَتَطايَرَ الشَّرَرُ ، وَاشْتَعَلَتِ النّارُ فيما كانَ قَدْ جَمَعَهُ مِنْ أَوْراقِ الشَّجَرِ المُتَناثِرَةِ ، والحَشائِشِ اليابِسَةِ ، وَرَمى بِالأَرْنَبَةِ في جَوْفِ النّارِ المُتَّقِدَةِ . وَلَمّا هَدَأَتِ النّارُ أَخْرَجَ الأَرْنَبَةَ فَإذا رَمادٌ كَثيرٌ قَدْ لَزِقَ بِها ، وَإذا نَفْسي تَنْفِرُ مِنْها ، وَلا تَجِدُ رَغْبَةً في أَكْلِها .

وَأَحَسَّ الفَتى ما يَدورُ في نَفْسي ، فَأَمْسَكَ الأَرْنَبَةَ بِيُسْراهُ ، وَأَمْسَكَ العَصا بِيُمْناهُ ، وَراحَ يَضْرِبُ جُنوبَها ضَرْباً خَفيفاً ، حَتّى نَفَضَ عَنْها كُلَّ ما كانَ قَدْ لَزِقَ بِها مِنْ رَمادٍ ، فَأَكَلْنا لَحْماً شَهِياً .

قُلْتُ : « وَهَذِهِ خامِسَةٌ مِنْ فَوائِدِ العَصا وَمَزاياها .»

وَفي اليَوْمِ الخامِسِ مَضَيْنا في طَريقِ السَّفَرِ مُشاةً ، نَسْتَريحُ حينَ نَشْعُرُ بِالتَّعَبِ ، وَنَمْشي حينَ نَجِدُ في أَنْفُسِنا قُوَّةً ، وَالشّابُّ يَرْفُقُ بي ، وَيَسيرُ بِسَيْري ، حَتّى إذا انْقَضى النَّهارُ أَوْ كادَ ، وَبَدَتْ تَباشيرُ اللَّيْلِ ، قُلْتُ لَهُ :

« عَلَيْنا أَنْ نَبْحَثَ عَنْ مَكانٍ نَقْضي فيهِ لَيْلَتَنا ، وَنَنْعَمُ بِقِسْطٍ مِنَ الرّاحَةِ ؛ كَيْ نَسْتَطيعَ مُواصَلَةَ السَّفَرِ إذا أَصْبَحَ الصَّباحُ .»

وَدَلَّنا النّاسُ عَلى خانٍ قَريبٍ مِنّا ، فَقَصَدْناهُ .

وَجَدْنا غُرَفَ الخانِ قَذِرَةً سَيِّئَةً ، مُمْتَلِئَةً بِالتُّرابِ ؛ فَلَمْ تَطِبْ نَفْسي لِلنَّوْمِ بِها .

وَنظَرَ الفتى حَوْلَهُ ، فَرأى حَديدَةً مَرْمِيَّةً على الأرْضِ ، فَأخَذَها ، وَجَعَلَ العَصا يَداً لها ، فَأصْبَحَتْ كَالفأسِ ، ثُمَّ جَرَفَ بِها التُّرابَ وَالأقْذارَ ، حَتى ظَهَرَتْ أرْضُ الغُرْفَةِ ، وَطابَتِ النَّفْسُ لِلنَّوْمِ بِها .

قُلْتُ : « وَهَذِهِ سادِسَةٌ مِنْ فَوائِدِ العَصا وَمَزاياها . »

وَما إنْ فَرَغَ مِنْ تَنْظيفِ الغُرْفَةِ ، وَتَهْيِئَتِها لِلنَّوْمِ – حَتّى نَزَعَ عَصاهُ مِنَ الحَديدَةِ ، وَألْقى بِالحَديدَةِ بَعيداً ، ثُمَّ جَعَلَ العَصا وَتِداً في الحائِطِ ، وَعَلَّقَ عَلَيْها ثِيابي وَثِيابَهُ .

قُلْتُ : « وَهَذِهِ سابِعَةٌ مِنْ فَوائِدِ العَصا وَمَزاياها . »

أشْرَقَ صَباحُ اليَوْمِ السّادِسِ ، فَخَرَجْنا نَسْتَأنِفُ السَّفَرَ ، حَتّى بَلَغْنا مُفْتَرَقَ الطُّرُقِ ، وَآنَ لِكُلِّ واحِدٍ مِنّا أنْ يَذْهَبَ في طَريقٍ ، فَقالَ لِيَ الفَتى : « يا عَمِّ ، لَقَدْ كادَ اللَّيْلُ يَحِلُّ عَلى الكَوْنِ ، وَقَرْيَتي قَريبَةٌ مِنّا ، فَماذا لَوْ جِئْتَ مَعي ، وَقَضَيْتَ اللَّيْلَ عِنْدي ، ثُمَّ اسْتَأنَفْتَ سَفَرَكَ إلى غايَتِكَ إذا كانَ الغَدُ ؟ »

قُلْتُ : « حُبًّا وَكَرامَةً ، يا بُنَيَّ . »

وَصَلْنا مَنْزِلَهُ ، وَكانَ بِجانِبِ إحْدى الكَنائِسِ الصَّغيرَةِ ، فَأنْزَلَني مُنْزَلاً طَيِّباً ، وَأكْرَمَني إكْراماً عَظيماً ، وَظَلَّ يُمْتِعُني وَيُطْرِفُني بِالأحاديثِ الشَّهِيَّةِ ، وَالنَّوادِرِ الذَّكِيَّةِ ، حَتّى غَلَبَني النَّوْمُ .

صَحَوْتُ مِنْ نَوْمي قُبَيْلَ الفَجْرِ عَلى صَوْتِ ناقوسٍ ، ما سَمِعْتُ أعْذَبَ مِنْهُ وَلا أجْمَلَ ، فَنَظَرْتُ حَوْلي ؛ فَوَجَدْتُ الفَتى قَدْ أخَذَ خَشَبَةً وَراحَ يَضْرِبُ بِها عَصاهُ ، فَتُحْدِثُ هَذا الصَّوْتَ العَذْبَ الجَميلَ .

قُلْتُ لَهُ : « أ لَسْتَ مُسْلِماً ، يا بُنَيَّ ؟ »

قالَ : « بَلى ، يا عَمِّ . »

قُلْتُ لَهُ : « فَلِماذا تَضْرِبُ بِالنّاقوسِ إذاً ؟

قالَ وَعَلى شَفَتَيْهِ ابْتِسامَةٌ رائِقَةٌ : « يا عَمِّ ، إنَّ لي أباً شَيْخاً كَبيراً ، وَهُوَ عَلى دينِ السَّيِّدِ المَسيحِ (عَلَيْهِ السَّلامُ) ، وَهُوَ يُحِبُّ هَذا الصَّوْتَ ، وَأنا أبَرُّهُ وَأُقْسِطُ إلَيْهِ ! »

قُلْتُ : « وَهَذِهِ ثامِنَةٌ مِنْ فَوائِدِ العَصا وَمَزاياها . »

ثُمَّ حَدَّثْتُهُ بِما أَحْصَيْتُهُ مِنْ فَوائِدِ العَصا وَمَزاياها ، وَما كانَ في نَفْسي مِنْ حَديثِهِ عَنْها عِنْدَما الْتَقَيْنا في المَوْصِلِ ؛ فَقال : « لا عَلَيْكَ يا عَمِّ ، إِنَّ حَديثَ العَصا لا يَنْقَضي ، وَفَوائِدَها لا تَنْتَهي ، وَلَوْ حَدَّثْتُكَ عَنْها لَيْلَةً كامِلَةً ما أَتَيْتُ عَلَيْها . »

قُلْتُ لَهُ : « لَقَدْ سَعِدْتُ بِبِرِّكَ والِدَكَ ، بِقَدْرِ ما سَعِدْتُ بِرُفْقَتِكَ ، وَنَعِمْتُ بِصُحْبَتِكَ ، وَفَّقَكَ اللهُ وَسَدَّدَ إِلى الخَيْرِ خُطاكَ . أَسْتَوْدِعُكَ اللهَ ! »

والي حِمْصَ
(عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ)

بَعْدَ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلى المُسْلِمينَ بِفَتْحِ بِلادِ الشّامِ ، وَلّى عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ رَجُلاً يُقالُ لَهُ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ إِمارَةَ حِمْصَ ، وَلَمّا مَضَتْ عَلى وِلايَتِهِ سَنَةٌ كَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ يَأْمُرُهُ بِالقُدومِ إِلى المَدينَةِ . وَلَمْ يَمْضِ غَيْرُ وَقْتٍ قَصيرٍ حَتّى كانَ عُمَيْرٌ في المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ ، يَسْتَأْذِنُ في الدُّخولِ عَلى أَميرِ المُؤْمِنينَ عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ .

دَخَلَ عُمَيْرٌ ، فَأَخَذَتْ أَميرَ المُؤْمِنينَ الدَّهْشَةُ ، وَانْتابَتْهُ الحَيْرَةُ ؛ لَقَدْ رَأى أَمامَهُ رَجُلاً حافِيَ القَدَمَيْنِ ، تَوَرَّمَتْ قَدَماهُ مِنْ كَثْرَةِ المَشْيِ ، وَأَصابَتْهُما بَعْضُ القُروحِ ، يَحْمِلُ في يُمْناهُ عُكّازَتَهُ ، وَفي يُسْراهُ إِداوَتَهُ - ذَلِكَ الإِناءَ الجِلْدِيَّ الصَّغيرَ ، يَضَعُ فيهِ الماءَ ، وَعَلى ظَهْرِهِ قَصْعَةٌ

وَ وِعاءٌ وَضَعَ فيهِ طَعامَهُ ، كانوا يُسَمّونَهُ مِزْوَدًا .

نظَرَ إليْهِ أميرُ المُؤْمِنينَ عُمَرُ فَأطالَ النَّظَرَ ، ثُمَّ قالَ لَهُ: « يا عُمَيْرُ ، أأسْرَعْتَ في إجابَةِ دَعْوَتِنا لَكَ ، فَلَمْ تَجِدْ فُسْحَةً مِنَ الوَقْتِ تُصْلِحُ فيها شَأنَكَ ، أمْ أنَّ البِلادَ الَّتي تَتَوَلّى أمْرَها بِلادُ سُوءٍ ، لَيْسَ فيها ما يُغْني ؟»

قالَ عُمَيْرٌ : « يا أميرَ المُؤْمِنينَ ، أما نَهانا اللهُ - عَزَّ وَ جَلَّ - عَنْ سُوءِ الظَّنِّ بِالنّاسِ ، وَعَنِ الجَهْرِ بِالسُّوءِ ؟ واللهِ ، لَقَدْ جِئْتُكَ بِالدُّنْيا كُلِّها !»

قالَ عُمَرُ : « وَماذا مَعَكَ مِنَ الدُّنْيا ؟»

قالَ عُمَيْرٌ : « مَعي عُكّازَةٌ أتَوَكَّأُ عَلَيْها ، وَأدْفَعُ بِها عَنْ نَفْسي ما قَدْ ألْقاهُ مِنَ الأعْداءِ ، وَمِزْوَدٌ أحْمِلُ فيهِ ما أحْتاجُهُ مِنْ طَعامٍ ، وَإداوَةٌ فيها ماءٌ أشْرَبُ مِنْهُ وَأتَوَضَّأُ ، وَقَصْعَةٌ فيها أتَوَضَّأُ ، وَأغْسِلُ رَأسي ، وَأتَناوَلُ طَعامي . ما الدُّنْيا - يا أميرَ المُؤْمِنينَ - بَعْدَ ذَلِكَ إلا تابِعَةٌ خادِمَةٌ لِما مَعي .»

لَمْ يَدْهَشْ عُمَرُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - مِمّا سَمِعَ ، وَلَمْ

يَعْجَبْ ، وَقالَ في نَفْسِهِ : « هَذِهِ هِيَ الأخْلاقُ الَّتي تَرَبّى عَلَيْها أولَئِكَ النَّفَرُ مِنَ المُسْلِمينَ ، لا يَحْرِمونَ أنْفُسَهُمْ مِنْ مَتاعِ الدُّنْيا ، وَلا يَتَكالَبونَ عَلَيْها ؛ وَإنَّما يَسْعَوْنَ وَيَجِدّونَ في طَلَبِ الرِّزْقِ ، وَيَرْضَوْنَ بِما قَسَمَ اللهُ ! وَهَذِهِ ، يا عُمَيْرُ ، هِيَ الصِّفاتُ الَّتي يَجِبُ أنْ تَتَوَفَّرَ فيمَنْ يَتَوَلّى أمورَ النّاسِ ، وَيَتَصَدّى لِقِيادَتِهِمْ .»

ثُمَّ قامَ عُمَرُ مِنْ فَوْرِهِ ، وَذَهَبَ مُسْرِعًا إلى قَبْرِ رَسولِ اللهِ ﷺ وَأبي بَكْرٍ ، وَبَكى بُكاءً مُرًّا شَديدًا ، وَهُوَ يَتَوَجَّعُ في

نَشيجٍ وَنَحيبٍ ، وَيَقولُ : « يا رَبِّ ، أَلْحِقْني بِصاحِبَيَّ عَلى خَيْرٍ . »

ثُمَّ عادَ إلى مَجْلِسِهِ ، وَدُموعُهُ تُبَلِّلُ لِحْيَتَهُ ، ثُمَّ قالَ : « يا عُمَيْرُ ، ماذا صَنَعْتَ في أُمورِ النّاسِ في وِلايَتِكَ ؟ »

قالَ : « يا أَميرَ المُؤْمِنينَ ، أَخَذْتُ الزَّكاةَ مِمَّنْ كَثُرَتْ أَمْوالُهُمْ ، وَبَلَغَتْ نِصاباً تُدْفَعُ عَنْهُ الزَّكاةُ ، وَأَخَذْتُ الخَراجَ مِمَّنْ يَفْلَحونَ الأَرْضَ وَعَلَيْهِمْ تَجِبُ ضَريبَتُها ، ثُمَّ قَسَّمْتُ هَذا كُلَّهُ بَيْنَ الفُقَراءِ وَالمَساكينِ وَأَبْناءِ السَّبيلِ ؛ كَي يُشْبِعَ هَؤُلاءِ حاجَتَهُمْ ، وَيَسودَ بَيْنَ أَغْنِياءِ المُجْتَمَعِ وَفُقَرائِهِ حُبٌّ وَسَلامٌ . وَلَوْ بَقِيَ يا أَميرَ المُؤْمِنينَ ، شَيْءٌ مِمّا أَخَذْتُ لأَتَيْتُكَ بِهِ . »

سُرَّ عُمَرُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - مِمّا سَمِعَ ، وَمِمّا رَأى ، وَبَدَتْ تَباشيرُ الغِبْطَةِ عَلى مُحَيّاهُ ، وَلاحَتْ أَماراتُ الرِّضا عَلى وَجْهِهِ ، وَقالَ : « يا عُمَيْرُ ، عُدْ إلى عَمَلِكَ ، بارَكَ اللهُ فيكَ ، وَنَفَعَ بِكَ . »

قالَ عُمَيْرٌ : « يا أَميرَ المُؤْمِنينَ ، إنْ أَذِنْتَ لي أَقَمْتُ مَعَ

أَهْلي في المَدينَةِ بَعْضَ الوَقْتِ . »

فَأَذِنَ عُمَرُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - لَهُ ، فَذَهَبَ إلى أَهْلِهِ .

وَكانَ عُمَرُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - مِنَ الَّذينَ لا يَأْخُذونَ الأُمورَ عَلى عِلاتِها ، وَلا يَتْرُكونَها عَلى عَواهِنِها ، وَلا يَنْخَدِعونَ بِالظَّواهِرِ - وَإِنَّما يَبْحَثُ وَيُدَقِّقُ وَيَسْتَقْصي ، وَخاصَّةً في أُمورِ الوُلاةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الَّذينَ يَتَوَلَّوْنَ وَظائِفَ الدَّوْلَةِ وَمَناصِبَها ، يَتَحَرّى عَنْهُمْ ، وَيَخْتَبِرُ أَحْوالَهُمْ ؛ كَي يَطْمَئِنَّ إلى أَنَّهُمْ يُراعونَ الحَقَّ ، وَيُقيمونَ العَدْلَ ، وَيَسْهَرونَ عَلى خِدْمَةِ الرَّعِيَّةِ .

فَما إنْ ذَهَبَ عُمَيْرٌ إلى دارِهِ ، حَتّى بَعَثَ عُمَرُ وَراءَهُ رَجُلاً يُقالُ لَهُ « حَبيبٌ » ، وَمَعَهُ مائَةُ دينارٍ ، وَقالَ لَهُ : « اذْهَبْ إلى دارِ عُمَيْرٍ وَاخْتَبِرْهُ : أَقِمْ مَعَهُ فيها أَيّاماً ثَلاثَةً ، وَانْظُرْ هَلْ يَعيشُ هُوَ وَأَهْلُهُ في سَعَةٍ أَمْ في ضيقٍ ؟ فَإِنْ كانَ يَعيشُ حَياةً خَشِنَةً جافَّةً فَادْفَعْ إلَيْهِ المالَ لِيُوَسِّعَ بِهِ عَلى نَفْسِهِ وَعَلى أَهْلِهِ ، ثُمَّ عُدْ إلَيْنا بِخَبَرِهِ . »

أَسْرَعَ « حَبيبٌ » يُنَفِّذُ أَمْرَ أَميرِ المُؤْمِنينَ .

طَرَقَ بابَ عُمَيْرٍ ، فَجاءَهُ صَوْتٌ مِنْ داخِلِ الدّارِ يَقولُ : « مَنِ الطّارِقُ ؟ »

« ضَيْفٌ ، يَنْشُدُ الطَّعامَ وَالشَّرابَ . »

« مَرْحَبًا بِكَ . »

وَكانَ عُمَيْرٌ لا يَعْرِفُ « حَبيبًا » ؛ لأنَّ « حَبيبًا » لَمْ يَكُنْ مِنْ سُكّانِ المَدينَةِ الأصْلِيّينَ ؛ بَلْ كانَ مِنَ الوافِدينَ عَلَيْها .

فَتَحَ عُمَيْرٌ البابَ ، وَرَحَّبَ بِضَيْفِهِ ، وَأَحَلَّهُ مِنْ نَفْسِهِ مَنْزِلَةً كَريمَةً ، وَأَشْرَكَهُ مَعَهُ وَمَعَ أَهْلِهِ فيما يَطْعَمونَ وَيَشْرَبونَ .

أَقامَ « حَبيبٌ » في بَيْتِ عُمَيْرٍ ، كَما أَمَرَهُ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ ، وَشارَكَ أَهْلَهُ في طَعامِهِمْ وَشَرابِهِمْ - فَلَمْ يَرَ لَهُمْ طَعامًا غَيْرَ الشَّعيرِ وَالزَّيْتِ في الأيّامِ كُلِّها . وَلَمّا مَضَتْ أيّامٌ ثَلاثَةٌ ، وَهِيَ أيّامُ الضِّيافَةِ عِنْدَ العَرَبِ ، قالَ عُمَيْرٌ لِحَبيبٍ :

« يا حَبيبُ ، إنَّ جيرانَنا أَوْسَعُ مِنّا رِزْقًا ، وَأَطْيَبُ مِنّا

عَيْشًا ، وَأَلْيَنُ حَياةً . فَإنْ شِئْتَ أنْ تَتَحَوَّلَ إلَيْهِمْ ، فَتُصيبَ مِمّا عِنْدَهُمْ ؛ فَإنَّنا لَوْ كانَ عِنْدَنا شَيْءٌ أَفْضَلُ مِمّا رَأَيْتَ لآثَرْناكَ بِهِ عَلى أَنْفُسِنا ، وَقَضَيْنا بِهِ حَقَّكَ عَلَيْنا . »

قالَ حَبيبٌ : « يا عُمَيْرُ ، ما جِئْتُكَ ضَيْفًا ، وَلا طالِبَ طَعامٍ وَشَرابٍ ؛ وَإنَّما بَعَثَني إلَيْكَ أَميرُ المُؤْمِنينَ بِهَذِهِ الدَّنانيرِ ، فَخُذْها يَرْحَمُكَ اللهُ . »

أَخَذَ عُمَيْرٌ الدَّنانيرَ ، ثُمَّ أَمَرَ زَوْجَتَهُ أنْ تَأْتِيَهُ بِثَوْبِها القَديمِ ، فَجَعَلَ يَقْطَعُ مِنْهُ القِطْعَةَ ، وَيَصُرُّ فيها الدَّنانيرَ خَمْسَةً أَوْ سِتَّةً أَوْ سَبْعَةً ، وَحَبيبٌ يَنْظُرُ إلَيْهِ ، وَيَعْجَبُ مِنْهُ ، وَلا يَدْري ماذا سَيَفْعَلُ عُمَيْرٌ بِهَذِهِ الصُّرَرِ . وَلَكِنَّهُ صَبَرَ عَلَيْهِ حَتّى صَرَّ الدَّنانيرَ كُلَّها ، ثُمَّ رَآهُ يَبْعَثُ بِكُلِّ صُرَّةٍ إلى واحِدٍ مِنَ الفُقَراءِ وَالمَساكينِ ، حَتّى أَتى عَلَيْها كُلِّها ، وَلَمْ يُبْقِ لِنَفْسِهِ وَلا لأَهْلِهِ مِنْها شَيْئًا !

عادَ « حَبيبٌ » إلى أَميرِ المُؤْمِنينَ عُمَرَ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَقالَ لَهُ : « جِئْتُكَ مِنْ عِنْدِ رَجُلٍ ، هُوَ أَزْهَدُ النّاسِ في مَتاعِ الدُّنْيا ، وَما عِنْدَهُ مِنْها قَليلٌ وَلا كَثيرٌ . »

رَضِيَ عُمَرُ كُلَّ الرِّضا عَمّا أَنْبَأَهُ بِهِ حَبيبٌ ، وَأَمَرَ لِعُمَيْرٍ بِثَوْبَيْنِ ، وَحِمْلِ بَعيرٍ مِنْ طَعامٍ . فَقالَ عُمَيْرٌ : « يا أَميرَ المُؤْمِنينَ ، أَمّا الثَّوْبانِ فَأَقْبَلُهُما ؛ لأَنّي وَزَوْجَتي في حاجَةٍ إِلَيْهِما ، وَأَمّا الطَّعامُ فَلا حاجَةَ لَنا بِهِ ، فَعِنْدَ أَهْلي قَدَحٌ مِنَ القَمْحِ ، وَمِقْدارٌ مِنَ الزَّيْتِ ، وَذَلِكَ يَكْفيهِمْ حَتّى أَرْجِعَ إِلَيْهِمْ .

ذُرِّيَّةٌ بَعْضُها مِنْ بَعْض

صَكَّ مَسامِعَ النّاسِ في دِمَشْقَ صَوْتُ المُؤَذِّنِ يَدْعو « الصَّلاةُ جامِعَة » ؛ فَأَسْقَطَ في أَيْديهِمْ ؛ إِذِ الوَقْتُ لَيْسَ وَقْتَ صَلاةٍ ، وَقَدْ عَرَفوا أَنَّ وَراءَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ نَبَأً خَطيراً ، وَخَبَراً عَظيماً ، فَهُرِعوا إِلى المَسْجِدِ الجامِعِ ، يَسْتَطْلِعونَ الخَبَرَ ، وَالخَواطِرُ في نُفوسِهِمْ تَذْهَبُ وَتَجيءُ ؛ إِذِ الخَليفَةُ سُلَيْمانُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ يُعاني مَرَضاً شَديداً ، فَهَلْ قَبَضَهُ اللهُ إِلَيْهِ ؟ وَيا تُرى مَنِ اسْتَخْلَفَ مِنْ بَعْدِهِ ؟ وَهَلْ سَيُقيمُ خَلَفُهُ العَدْلَ ، وَيَأْخُذُ النّاسَ بِالحَقِّ ، وَيَنْشُرُ الأَمْنَ ؟

خَواطِرُ شَتّى ، وَأَفْكارٌ مُتَنَوِّعَةٌ ، راحَتْ تَتَوارَدُ عَلى أَذْهانِ النّاسِ ، وَتَتَزاحَمُ في نُفوسِهِمْ ، وَتَمورُ بِها صُدورُهُمْ ، وَهُمْ يَنْهَبونَ طَريقَهُمْ إِلى المَسْجِدِ الجامِعِ نَهْباً ، لا يَلْوونَ عَلى شَيْءٍ ، وَلا يَسْتَوْقِفُهُمْ شَيْءٌ . كُلُّ هَمِّهِمْ أَنْ يَبْلُغوا المَسْجِدَ

سِراعًا .

غَصَّ المَسْجِدُ بِالنّاسِ الَّذينَ انْسابوا إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ ، وَشَخَصَتْ أَبْصارُهُمْ إِلى البابِ الكَبيرِ كَأَنَّما تَسَمَّرَتْ عَلَيْهِ ، وَأَرْهَفَتْ آذانُهُمْ فَما يَفوتُها حِسٌّ وَلا نَأْمَةٌ ، وَمَرَّتْ لَحَظاتٌ قَصيرَةٌ خالَها النّاسُ دَهْرًا طَويلاً . وَدَخَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ البابِ الكَبيرِ « رَجاءُ بْنُ حَيْوَةَ » .

تَعَلَّقَتْ أَبْصارُ النّاسِ بِشَفَتَيْه ، وأَصْغَتْ أَسْماعُهُمْ إِلَيْهِ ؛ فَهُوَ صَفِيُّ الخَليفَةِ وَنَجِيُّهُ ، وَمَوْضِعُ سِرِّهِ . قالَ رَجاءُ وَقَدْ لَحَظَ صَمْتَ النّاسِ وَسُكونَهُمْ : « أَيُّها النّاسُ ، إِنَّ أَميرَ المُؤْمِنينَ سُلَيْمانَ بْنَ عَبْدِ المَلِكِ ...»

وَهُنا اشْتَدَّ وَجيبُ القُلوبِ ، وَشَهِقَتِ الصُّدورُ ، وَاحْتَبَسَتِ الأَنْفاسُ ؛ فَقَدْ كانَ « رَجاءُ » يَتَكَلَّمُ في رَيْثٍ وَأَناةٍ . وَلَحَظَ « رَجاءُ » ما عَلا وُجوهَ النّاسِ مِنْ وَجَلٍ وَخَوْفٍ ، يَكْشِفُ عَمّا تُعانيهِ أَفْئِدَتُهُمْ مِنِ اضْطِرابٍ ؛ فَقالَ لَهُمْ :

« اِطْمَئِنُّوا ، إِنَّهُ بِخَيْرٍ وَعافِيَةٍ . إِنَّهُ يُقْرِئُكُمُ السَّلامَ ،

وَيَدْعو لَكُمْ بِالخَيْرِ ، وَيُعْلِنُ إِلَيْكُمْ أَنَّهُ قَدِ اجْتَهَدَ لَكُمْ ، وبالَغَ في الاجْتِهادِ ، وَاخْتارَ لَكُمْ ، وَهُوَ يَرْجو اللهَ أَنْ يَكونَ قَدْ أَحْسَنَ الاخْتِيارَ ؛ فَهَلْ تُبايِعونَ لِمَنِ اسْتَخْلَفَهُ عَلَيْكُمْ ، وَعَهِدَ إِلَيْهِ بِالأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَسَمّاهُ في هَذا الكِتابِ ؟»

تَعالَتْ أَصْواتُ النّاسِ بِالبَيْعَةِ لِمَنْ عَهِدَ إِلَيْهِ أَميرُ المُؤْمِنينَ ، وَأَعْلَنوا السَّمْعَ وَالطّاعَةَ لَهُ في غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ، وَ« رَجاءُ بْنُ حَيْوَةَ » واقِفٌ صامِتٌ ، يَتَفَرَّسُ في وُجوهِ النّاسِ ، وَتَتَناهى إِلَيْهِ أَصْواتُهُمْ ، حَتّى رَضِيَتْ نَفْسُهُ بِما صَنَعَ ، وَاطْمَأَنَّ قَلْبُهُ إِلى ما وَقَعَ ؛ فَأَنْشَأَ يَتَلَفَّتُ يَمينًا وشِمالاً ، وَراحَتْ عَيْناهُ تَدورانِ في المَسْجِدِ كُلِّهِ ، كَأَنَّما تُنَقِّبانِ عَنْ شَخْصٍ بِعَيْنِهِ . إِنَّهُ لا يَرى ذَلِكَ الشَّخْصَ الَّذي يَبْحَثُ عَنْهُ بَيْنَ الحاضِرينَ ، وَلا تَقَعُ عَيْناهُ عَلى مَنْ يُريدُ ، فَأَيْنَ ذَهَبَ ؟ وَأَيْنَ اخْتَفى عَنِ الجَمْعِ الحاشِدِ في هَذا اليَوْمِ المَشْهودِ ؟

أَخَذَ يَلْتَمِسُهُ في أَرْجاءِ المَسْجِدِ ، حَتّى وَجَدَهُ قَدِ انْتَبَذَ مِنَ النّاسِ مَكانًا قَصِيا ، فَقَدْ أَدّى ما عَلَيْهِ مِنْ حَقِّ البَيْعَةِ وَالعَهْدِ ، فَما لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ شَأْنٍ !

عَثَرَ « رَجاءُ بْنُ حَيْوَةَ » في ذَلِكَ المَكانِ النّائي البَعيدِ عَلى ضالَّتِهِ « عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزيزِ » ؛ فَقالَ لَهُ : « السَّلامُ عَلَيْكَ ، يا أميرَ المُؤْمِنينَ ، وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ ! قُمْ إلى المِنْبَرِ ، وَاخْطُبِ النّاسَ . »

قالَ عُمَرُ : « إلَيْكَ عَنّي ، يا رَجاءُ ، فَما لي فيها مِنْ أَرَبٍ ، وَلا عَلَيْها قُدْرَةٌ . »

قالَ رَجاءُ : « أناشِدُكَ اللهَ أَنْ تَقْبَلَ ، يا أميرَ المُؤْمِنينَ ، حَتّى لا يَخْتَلِفَ النّاسُ ، وَيَضْطَرِبَ أَمْرُهُمْ ! لَقَدْ قَضى اللهُ عَلى سُلَيْمانَ بِالمَوْتِ ، وَلَقِيَ رَبَّهُ ، وَعَهِدَ إلَيْكَ مِنْ بَعْدِهِ . »

نَهَضَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزيزِ مِنْ مَجْلِسِهِ مُتَثاقِلاً ، وَمَضى إلى المِنْبَرِ في خُطُواتٍ وَئيدَةٍ ، أَثْقَلَتْها المَسْئوليَّةُ الَّتي أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ ، وَالأَمانَةُ الَّتي عُهِدَ بِها إلَيْهِ ، وَهُوَ في طَريقِهِ إلى المِنْبَرِ يَطْلُبُ مِنْ رَبِّهِ العَوْنَ وَالمَدَدَ ، وَعُيونُ النّاسِ مِنْ حَوْلِهِ تَرْصُدُهُ ، وَتَتَنَقَّلُ مَعَ خُطُواتِهِ ، وَدَقّاتُ قُلوبِهِمْ تَتَجاوَبُ مَعَ وَقْعِ أَقْدامِهِ ، وَأَنْفاسُهُمْ تَتَصاعَدُ مَعَ أَنْفاسِهِ : هَلْ هُوَ الخَليفَةُ المُنْتَظَرُ أَمْ أَنَّهُ سَيَقْرَأُ كِتابَ أميرِ المُؤْمِنينَ سُلَيْمانَ ، وَيُذيعُ بَيْنَ النّاسِ مَنْ وُكِلَ إلَيْهِ الأَمْرُ ؟

صَعِدَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزيزِ المِنْبَرَ ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنى عَلَيْهِ ، وَنَعى إلى النّاسِ سُلَيْمانَ بْنَ عَبْدِ المَلِكِ ، وَأَذاعَ فيهِمْ خَبَرَ مَوْتِهِ ، ثُمَّ فَتَحَ الكِتابَ ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ عَهْدَهُ .

طابَتْ نُفوسُ النّاسِ بِصَنيعِ سُلَيْمانَ ، وَأَثْلَجَتْ صُدورُهُمْ بِعَهْدِهِ ، وَاطْمَأَنَّتْ قُلوبُهُمْ إلى مَنِ اسْتَخْلَفَهُ ؛ فَما عَلِموا عَنْ عُمَرَ إلا خَيْراً ، وَما عَرَفوا عَنْهُ نُكْراً ، وَهُمْ يَتَوَقَّعونَ أَنْ يُقيمَ بَيْنَهُمْ عَدْلاً ؛ يَرُدُّ عَلى المَظْلومِ حَقَّهُ ، وَيَرْفَعُ عَنِ المَقْهورِ قَهْرَهُ .

أَخَذَ عُمَرُ مِنَ النّاسِ البَيْعَةَ لِنَفْسِهِ ، وَالعَهْدَ عَلى السَّمْعِ وَالطّاعَةِ في العُسْرِ واليُسْرِ ، ما لَمْ يَأْمُرْهُمْ بِمَعْصيَةٍ ؛ فَلا طاعَةَ لِمَخْلوقٍ في مَعْصيَةِ الخالِقِ ، ثُمَّ نَزَلَ .

قَضى عُمَرُ في بَيْتِهِ أَيّامًا ثَلاثَةً ، لا يَرى النّاسَ وَلا يَرَوْنَهُ ، يُقَلِّبُ الأَمْرَ عَلى وُجوهِهِ ، وَيُفَكِّرُ في هَذِهِ المَسْئوليَّةِ الضَّخْمَةِ ، وَفي هَذا العِبْءِ الباهِظِ : كَيْفَ يَقومُ بِحَقِّهِ ؟ وَهَلْ يَسْتَطيعُ أَنْ يَنْهَضَ بِتَبِعاتِهِ ؟ إنَّهُ يَطْلُبُ العَوْنَ مِنْ رَبِّهِ ؛ فَلا عَوْنَ إلا عَوْنُهُ ، وَلا مَدَدَ إلا مَدَدُهُ ، وَعَلى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنونَ .

خَرَجَ عُمَرُ مِنْ بَيْتِهِ بَعْدَ ثَلاثَةِ أَيّامٍ ، فَوَجَدَ كَثيراً مِنْ وُجوهِ بَني أُمَيَّةَ وأَعْيانِهِمْ ، وَكَثيراً مِنْ أَشْرافِ العَرَبِ ، وَقادَةَ الجُنْدِ - وَجَدَهُمْ جَميعًا قِيامًا بِالبابِ ، يَنْتَظِرونَ ما يَخْرُجُ بِهِ عَلَيْهِمْ .

حَيّاهُمْ ، وَسارَ إِلى المَسْجِدِ ، فَساروا مَعَهُ . وَتَقاطَرَ النّاسُ إِلى المَسْجِدِ وَهُمْ يَرَوْنَ أَميرَ المُؤْمِنينَ وَقادَةَ الدَّوْلَةِ يَسْعَوْنَ إِلَيْهِ .

اطْمَأَنَّ بِهِمُ المَجْلِسُ في المَسْجِدِ الجامِعِ ، وَالجَميعُ يَنْظُرونَ إِلى عُمَرَ ، وَيَتَرَقَّبونَ قَوْلَهُ . وَبَعْدَ قَليلٍ وَقَفَ أَميرُ المُؤْمِنينَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزيزِ يُذيعُ فيهِمْ خُطَّتَهُ ، وَيُفْصِحُ لَهُمْ عَنْ طَريقَتِهِ : إِنَّهُ يَمْضي بَيْنَهُمْ مُلْتَزِماً كِتابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسولِهِ ، وَسَيَحْمِلُهُمْ عَلى الحَقِّ ؛ فَالضَّعيفُ فيهِمْ قَوِيٌّ حَتّى يَرُدَّ الحَقَّ لَهُ ، وَالقَوِيُّ فيهِمْ ضَعيفٌ حَتّى يَأْخُذَ الحَقَّ مِنْهُ . وَإِنَّهُ سَيَبْدَأُ بِرَدِّ المَظالِمِ الَّتي ظَلَمَها بَعْضُ بَني أُمَيَّةَ لِلنّاسِ ، وَغَلَبوهُمْ عَلَيْها بِغَيْرِ حَقٍّ ، فَمَنْ كانَتْ لَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَظْلَمَةٌ فَلْيُعْلِنْ عَنْها ، فَإِنَّها مَرْدودَةٌ عَلَيْهِ ، عائِدَةٌ إِلَيْهِ ، ما أَقامَ حُجَّتَهُ ، وَأَثْبَتَ بَيِّنَتَهُ . وَإِنَّهُ يَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ

يَنْهَضوا بِواجِبِهِمْ ، وَيَتَحَمَّلوا مَسْئولِيَّتَهُمْ ؛ فَيُعينوهُ ما دامَ عَلى الحَقِّ ، فَإِنْ جانَبَ الصَّوابَ ، وَانْحَرَفَ عَنْ طَريقِ الرَّشادِ - فَعَلَيْهِمْ أَنْ يُسَدِّدوهُ وَيُقَوِّموهُ .

وَذاتَ يَوْمٍ كانَ عُمَرُ جالِسًا يُصَرِّفُ شُئونَ الدَّوْلَةِ ، فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ صَديقٌ لَهُ قَديمٌ يُدْعى « عَنْبَسَةَ » ، فَأَذِنَ لَهُ، وَرَحَّبَ بِهِ ، وَهَشَّ لَهُ وَبَشَّ .. فَأَطْمَعَ هَذا اللِّقاءُ الوَدودُ الصَّديقَ في أَنْ يَسْتَجيبَ عُمَرُ لِرَغْبَتِهِ ، وَيُحَقِّقَ لَهُ طِلْبَتَهُ ، وَشَرَعَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ قَضِيَّتَهُ .

قالَ عَنْبَسَةُ : « يا أَميرَ المُؤْمِنينَ ، إِنَّ ما بَيْني وَبَيْنَكَ مِنَ الوُدِّ أَكْثَرُ مِمّا كانَ بَيْني وَبَيْنَ سَلَفِكَ سُلَيْمانَ ، وَإِنَّ سُلَيْمانَ كانَ قَدْ أَمَرَ لي بِعِشْرينَ أَلْفَ دينارٍ ، وَكَتَبَ لي بِذَلِكَ صَكا ، وَتُوُفِّيَ قَبْلَ أَنْ أَقْبِضَها ، وَأَنْتَ أَوْلى النّاسِ بِأَنْ تُتِمَّ الصَّنيعَةَ عِنْدي ، بِحَقِّ ما بَيْنَنا مِنَ الصُّحْبَةِ وَالمَوَدَّةِ .»

قالَ عُمَرُ : « كَمْ ديناراً أَمَرَ لَكَ بِها سُلَيْمانُ ؟»

قالَ عَنْبَسَةُ : « عِشْرونَ أَلْفَ دينارٍ ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ .»

قالَ عُـمَـرُ : « عِشْرونَ أَلْفًا تُغْني أَرْبَعَةَ آلافِ بَيْتٍ مِنَ الرَّعِيَّةِ ، وَتُشْبِعُ حاجَتَهُمْ ، وَتَفي بِمُتَطَلَّباتِ حَياتِهِمْ – أَدْفَعُها إِلى رَجُلٍ واحِدٍ ؟ ما إِلى ذَلِكَ مِنْ سَبيلٍ !»

لَمْ يَكُنْ « عَنْبَسَةُ » يَتَوَقَّعُ مِنْ عُمَرَ غَيْرَ ما حَدَثَ ، فَهَمَّ بِتَمْزيقِ الصَّكِّ الَّذي كانَ سُلَيْمانُ قَدْ كَتَبَهُ لَهُ ، وَإِلْقائِهِ ، وَلَكِنَّ عُمَرَ قالَ لَهُ: « لا تَفْعَلْ ، وَاحْتَفِظْ بِهِ ، فَلَعَلَّهُ يَأْتي مِنْ بَعْدي مَنْ يَكونُ أَجْرَأَ عَلى بَيْتِ مالِ الْمُسْلِمينَ ؛ فَيُنَفِّذَهُ لَكَ .»

خَرَجَ « عَنْبَسَةُ » مِنْ لَدُنْ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ راضِيًا ، قَدْ قَرَّتْ عَيْنُهُ بِما صَنَعَ ، وَسَكَنَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ ، فَما أَرادَ عُمَرُ إِلا الخَيْرَ لِدينِهِ وَلِلرَّعِيَّةِ ، وَما أَدَّى عُمَرُ إِلا حَقَّ الأَمانَةِ الَّتي اؤْتُمِنَ عَلَيْها . وَجالَتْ في ذِهْنِ « عَنْبَسَةَ » ذِكْرى الأَيّامِ الأُولى لِتَوَلّيهِ ، وَكَيْفَ وَقَفَ عُمَرُ مِنْ نَفْسِهِ وَ وَلَدِهِ نَفْسَ المَوْقِفِ الَّذي وَقَفَهُ مِنْ غَيْرِهِ ، وَكَيْفَ أَخَذَ نَفْسَهُ بِما أَخَذَ بِهِ سِواها .

لَقَدْ كانَتْ لَهُ ضَيْعَةٌ بِاليَمامَةِ تُسَمّى « السَّهْلَةَ » ،

وَكانَتْ مَوْفورَةَ الغَلاتِ ، عَظيمَةَ الخَيْراتِ ، يَعيشُ مِنْها هُوَ وَأَهْلُهُ . فَلَمّا وَلِيَ الأَمْرَ قالَ لِخادِمِهِ مُزاحِمٍ : « يا مُزاحِمُ ، إِنَّني قَدْ عَزَمْتُ عَلى رَدِّ « السَّهْلَةِ » إِلى بَيْتِ مالِ المُسْلِمينَ .»

قالَ مُزاحِمٌ : « أَتَدْري كَمْ وَلَدُكَ ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ ؟ إِنَّهُمْ كَذا وَكَذا ... »

وَراحَ « مُزاحِمٌ » يُحْصيهِمْ وَيَعُدُّهُمْ فَرْدًا فَرْدًا ، وَكَأَنَّهُ يَقولُ لَهُ : « إِنَّكَ تَتْرُكُهُمْ فُقَراءَ ، لا يَجِدونَ ما يُنْفِقونَ ، ذَرَفَتْ عَيْناهُ الدُّموعَ ، وَأَخَذَ يَمْسَحُها بِأُصْبُعِهِ ، وَهُوَ يَقولُ لِمُزاحِمٍ : « إِنَّني أَكِلُ أَمْرَهُمْ إِلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، هُوَ يَتَوَلاهُمْ ، وَهُوَ حَسْبي وَنِعْمَ الوَكيلُ .»

وَلَكِنَّ « مُزاحِمًا » لَمْ يَكُنْ عَنْ رَدِّ « السَّهْلَةِ » راضِيًا ؛ فَأَسْرَعَ يَسْتَعْدي عَلَيْهِ أَكْبَرَ أَبْنائِهِ عَبْدَ المَلِكِ ، لَعَلَّهُ يُثْنيهِ عَنْ عَزْمِهِ ، وَيَسْتَخْلِصُ « السَّهْلَةَ » لَهُ وَلِإِخْوَتِهِ . قالَ مُزاحِمٌ لِعَبْدِ المَلِكِ : « أَتَدْري عَلى أَيِّ شَيْءٍ عَزَمَ أَبوكَ ؟»

قالَ عَبْدُ المَلِكِ : « لا عِلْمَ لي ، ولا خَبَرَ عِنْدي ، فَما

وَراءَكَ ؟»

قالَ مُزاحِمٌ : « لَقَدْ عَزَمَ على رَدِّ « السَّهْلَةِ » إلى بَيْتِ المالِ .»

قالَ عَبْدُ المَلِكِ : « وَبِماذا أشَرْتَ عَلَيْهِ ؟»

قالَ مُزاحِمٌ ، وَقَدْ تَوَهَّمَ أَنَّهُ اسْتَمالَ عَبْدَ المَلِكِ إلى صَفِّهِ ، وَأَنَّهُ سَوْفَ يُعَضِّدُ رَأْيَهُ :

« ذَكَرْتُ لَهُ وَلَدَهُ ، وَأَحْصَيْتُهُمْ لَهُ عَدًّا ، وَذَكَرْتُ لَهُ ما يَنْتَظِرُهُمْ مِنْ سوءِ الحالِ إنْ أَنْفَذَ عَزْمَهُ .»

قالَ عَبْدُ المَلِكِ : « وَماذا كانَ مِنْ أميرِ المؤْمِنينَ ؟»

قالَ مُزاحِمٌ : « فاضَتْ عَيْناهُ بِالدُّموعِ ، وَراحَ يَمْسَحُ دُموعَهُ بِأَصْبُعِهِ الوُسْطى ، وَيَقولُ : « أَكِلُ أَمْرَهُمْ إلى اللهِ ، هُوَ حَسْبي وَنِعْمَ الوَكيلُ .»»

قالَ عَبْدُ المَلِكِ لِمُزاحِمٍ : « بِئْسَ المُشيرُ أَنْتَ !»

ثُمَّ وَثَبَ مِنْ مَجْلِسِهِ ، وَانْطَلَقَ يَعْدو صَوْبَ أبيهِ ، فَقالَ لِلآذِنِ : « اِسْتَأْذِنْ لي عَلى أبي .»

قالَ الآذِنُ : « يا سَيِّدي ، تَعْلَمُ أَنَّ الوَقْتَ وَقْتُ

الظَّهيرَةِ ، وَأَميرُ المُؤْمِنينَ قَدْ وَضَعَ رَأْسَهُ لِيَسْتَريحَ قَليلاً . أَما تَرْحَمونَهُ ؟ إِنَّهُ لا يَجِدُ لِلرّاحَهِ سَبيلاً في اللَّيْلِ أَوِ النَّهارِ إلا هذِهِ السّاعَةَ! »

وَلكِنَّ « عَبْدَ المَلِكِ » رَفَعَ صَوْتَهُ ، يَطْلُبُ الإِذْنَ لَهُ بِالدُّخولِ عَلى أبيهِ ، وَسَمِعَ عُمَرُ كَلامَهُما ، فَنادى الآذِنَ ، وَقالَ لَهُ : « أَدْخِلْ عَبْدَ المَلِكِ ، فَما جاءَ بِهِ السّاعَةَ إلا أَمْرٌ شَديدٌ !»

وَقَفَ عَبْدُ المَلِكِ بَيْنَ يَدَيْ أبيهِ ، وَقالَ لَهُ : « عَلامَ عَزَمْتَ ؟»

قالَ : « عَزَمْتُ عَلى أَنْ أَرُدَّ « السَّهْلَةَ » إلى بَيْتِ المالِ .»

قالَ عَبْدُ المَلِكِ : « لا تُؤَخِّرْ ذَلِكَ ، قُمِ الآنَ نَفِّذْ ما عَزَمْتَ عَلَيْهِ .»

سُرَّ عُمَرُ بِما سَمِعَ ، وَقَرَّتْ عَيْنُهُ ، وَجَعَلَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ تَضَرُّعًا إلى رَبِّهِ ، وَهُوَ يَقولُ : « الحَمْدُ للهِ الَّذي جَعَلَ مِنْ ذُرِّيَّتي مَنْ يُعينُني عَلى أَمْري .»

ثُمَّ أدارَ وَجْهَهُ نَحْوَ ابْنِهِ ، وَقالَ لَهُ : « نَعَمْ ، يا بُنَيَّ ، سَأُصَلِّي الظُّهْرَ ، ثُمَّ أَصْعَدُ المِنْبَرَ ، فَأَرُدُّها عَلانِيَةً أَمامَ النّاسِ أَجْمَعينَ . »

قالَ عَبْدُ المَلِكِ : « وَمَنْ يَضْمَنُ لَكَ ، يا أَبي أَنْ تَعيشَ حَتّى تُصَلِّيَ الظُّهْرَ ؟ » وَصَمَتَ قَليلاً ، ثُمَّ أَرْدَفَ :

« وَمَنْ يَضْمَنُ لَكَ إذا عِشْتَ حَتّى الظُّهْرِ أَنْ تَظَلَّ نِيَّتُكَ سَليمَةً خالِصَةً ؟ »

فَقامَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزيزِ مِنْ فَوْرِهِ ، وَصَعِدَ المِنْبَرَ ، وَرَدَّ « السَّهْلَةَ » عَلى رُءوسِ الأَشْهادِ .

دارَتْ ذِكْرى هَذِهِ الواقِعَةِ في خاطِرِ « عَنْبَسَةَ » وَهُوَ يَمْضي في طَريقِهِ ، بَعْدَ أَنْ خَرَجَ مِنْ مَجْلِسِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزيزِ ؛ فَابْتَسَمَ ابْتِسامَةً راضِيَةً ، أَشْرَقَتْ بِها قَسِماتُ وَجْهِهِ ، وَقالَ :

« حَقًّا ! لَقَدْ جاءَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزيزِ مَلْفوفاً بِثِيابِ جَدِّهِ عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ . »

حَبّاتُ العِقْدِ

أَشْرَقَتْ شَمْسُ عيدِ الأَضْحى ، وَكانَ المُسْلِمونَ قَدْ تَهَيَّئُوا لِاسْتِقْبالِهِ ، وَاسْتَعَدُّوا لِلِقائِهِ ، فَلَبِسوا أَجْمَلَ ما عِنْدَهُمْ مِنْ ثِيابٍ ، وَتَطَيَّبوا بِأَفْضَلِ ما لَدَيْهِمْ مِنْ طيبٍ ، ثُمَّ خَرَجوا يُؤَدّونَ الصَّلاةَ .

صَلّى عَلِيُّ بْنُ أَبي طالِبٍ صَلاةَ العيدِ بِالنّاسِ ؛ فَقَدْ كانَ أَميرَ المُؤْمِنينَ آنَذاكَ : وَلَمّا فَرَغَ مِنَ الصَّلاةِ ، وَانْفَلَتَ مِنْها ، وَانْفَلَتَ النّاسُ مَعَهُ - أَخَذَ يُهَنِّئُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيَتَمَنَّوْنَ أَنْ يَحِلَّ السَّلامُ في الدَّوْلَةِ ، وَأَنْ تَزولَ الفُرْقَةُ وَالخِصامُ ، وَيَسودَ الحُبُّ وَالوِئامُ ، وَأَنْ يَجْمَعَ اللهُ كَلِمَتَهُمْ عَلى التَّقْوى ، وَيُؤَلِّفَ قُلوبَهُمْ عَلى الهُدى .

عادَ أَميرُ المُؤْمِنينَ عَلِيُّ بْنُ أَبي طالِبٍ إِلى دارِهِ ، فَاسْتَقْبَلَتْهُ ابْنَتُهُ : تَتَواثَبُ الفَرْحَةُ في صَدْرِها ، وَتُطِلُّ البَهْجَةُ

مِنْ عَيْنَيْها ، وَلَكِنَّ نَظْرَةَ أبيها القاسِيَةَ ، وَ وَجْهَهُ العابِسَ ، وَجَبينَهُ المُقطَّبَ - وَأدَ الفَرْحَةَ في صَدْرِها ، وَقَتَلَ البَسْمَةَ عَلى شَفَتَيْها ؛ فارْتاعَتْ حُزْنًا وَهَلَعًا ، وَخَشِيَتْ أنْ يَكونَ قَدْ حاقَ بِأبيها مَكْروهٌ ، أوْ نَزَلَتْ بِالمُسْلِمينَ نازِلَةٌ .

كانَ أبوها يُصَوِّبُ نَظَرَهُ نَحْوَها ، وَيُصَعِّدُهُ فيها ، ثُمَّ تَسْتَقِرُّ عَيْناهُ عَلى صَدْرِ ابْنَتِهِ لا تُفارِقانِهِ .



شَعَرَتِ الابْنَةُ بِوَقْعِ العَيْنَيْنِ عَلى صَدْرِها ، فَضَرَبَتْهُ بِيَدِها ، وَإذا يَدُها تَسْقُطُ عَلى عِقْدٍ مِنَ اللُّؤْلُؤِ الخالِصِ ، تَبْرُقُ حَبّاتُهُ ، وَتَكادُ تُضيءُ مِنْ شِدَّةِ لَمَعانِهِ ، وَتَتَدَلّى - مِنْ

جيدِها - في انْتِظامٍ وَاتِّساقٍ كَحَبّاتِ عُنْقودٍ مِنَ العِنَبِ ، تَزينُ صَدْرَها .

تَجَمَّدَتْ يَدُها فَوْقَ صَدْرِها ، وَأحَسَّتْ فَداحَةَ ما صَنَعَتْ ، وَأدْرَكَتِ السِّرَّ في عُبوسِ أبيها وَتَقْطيبِهِ ؛ فَأطْرَقَتْ بِرَأسِها واجِمَةً .

قالَ عَلِيٌّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) : « مِنْ أيْنَ جِئْتِ بِهَذا العِقْدِ ؟»

قالَتْ : « اِسْتَعَرْتُهُ مِنْ بَيْتِ مالِ المُسْلِمينَ ؛ لأتَزَيَّنَ بِهِ في يَوْمِ العيدِ ، ثُمَّ أعيدَهُ إلى مَكانِهِ .»

أرْسَلَ أميرُ المُؤْمِنينَ عَلِيُّ بْنُ أبي طالِبٍ يَطْلُبُ ابْنَ أبي رافِعٍ خازِنَ بَيْتِ المالِ ، وَشَدَّدَ عَلى الرَّسولِ في أنْ يَأتِيَ بِهِ مَعَهُ .

وَلَمّا جاءَ ابْنُ أبي رافِعٍ قالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أبي طالِبٍ في غَضَبٍ واسْتِنْكارٍ : « أ تَخونُ الأمانَةَ ، يا بْنَ أبي رافِعٍ ؟»

أجابَ خازِنُ بَيْتِ المالِ : « مَعاذَ اللهِ ، يا أميرَ المُؤْمِنينَ !

كَيْفَ ذَلِكَ ؟ ماذا حَدَثَ ؟»

قالَ عَلِيٌّ : « لَقَدِ اسْتَعارَتْ مِنْكَ ابْنَتي العِقْدَ الَّذي في بَيْتِ المالِ فَأَعَرْتَها إِيّاهُ ، بِدونِ إِذْنِ المُسْلِمينَ وَرِضاهُمْ .»

قالَ ابْنُ أَبي رافِعٍ خازِنُ بَيْتِ المالِ : « يا أَميرَ المُؤْمِنينَ ، إِنَّها ابْنَتُكَ ! وَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّ في بَيْتِ المالِ عِقْداً مِنَ اللُّؤْلُؤِ الخالِصِ ؛ فَتاقَتْ نَفْسُها إِلى أَنْ تَتَزَيَّنَ بِهِ وَتَتَجَمَّلَ في يَوْمِ العيدِ ، كَما تَتَزَيَّنُ وَتَتَجَمَّلُ الفَتَياتُ ، وَطَلَبَتْ مِنّي أَنْ تَسْتَعيرَهُ عارِيَةً مَضْمونَةً مَرْدودَةً بَعْدَ ثَلاثَةِ أَيّامٍ ؛ فَوافَقْتُ .»

قالَ عَلِيٌّ في شِدَّةٍ : « رُدَّهُ ، يا بْنَ أَبي رافِعٍ ، إِلى مَكانِهِ فَوْراً ، وَإِيّاكَ أَنْ تَعودَ لِمِثْلِ ذَلِكَ ؛ فَتَلْقى مِنّي عِقاباً شَديداً !»

قالَ ابْنُ أَبي رافِعٍ : « سَمْعاً وَطاعَةً ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ .»

ثُمَّ قالَ عَلِيٌّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) بَعْدَ أَنْ أُعيدَ العِقْدُ سالِماً إِلى مَكانِهِ في بَيْتِ مالِ المُسْلِمينَ : « لَوْ أَنَّ ابْنَتي أَخَذَتِ العِقْدَ مِنْ بَيْتِ المالِ ، دونَ أَنْ تَشْتَرِطَ عَلى نَفْسِها

أَنَّهُ عارِيَةٌ مَضْمونَةٌ مَرْدودَةٌ - لَكانَتْ أَوَّلَ هاشِمِيَّةٍ تُقْطَعُ يَدُها في سَرِقَةٍ !»

بَلَغَ هَذا القَوْلُ ابْنَتَهُ ؛ فَمَشَتْ إِلَيْهِ عَلى اسْتِحْياءٍ ، وَقالَتْ : « يا أَبي ، إِنَّما أَنا ابْنَتُكَ ، قِطْعَةٌ مِنْكَ ، فَمَنْ أَحَقُّ بِلِبْسِ هَذا العِقْدِ مِنّي ؟»

قالَ أَبوها : « يا بُنَيَّتي ، لا تَبْتَعِدي عَنِ الحَقِّ ، وَلا تُجاوِزي الصَّوابَ ، وَلا تَتَمادَيْ في الباطِلِ ! هَلْ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ نِساءِ المُسْلِمينَ تَلْبَسُ مِثْلَ هَذا العِقْدِ في يَوْمِ العيدِ ؟»

أَجابَتْ : « لا ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ .»

قالَ عَلِيٌّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) : « وَهَلْ أَنْتِ إِلا واحِدَةٌ مِنْهُنَّ ، يا بُنْتي ؟»

القِسْمَةُ السّاحِرَةُ

نَزَلَ أعْرابِيٌّ مَدينَةَ البَصْرَةِ ، وَأقامَ بِها ، وَحَسُنَتْ حالُهُ ، وَلانَتْ مَعيشَتُهُ ، وَرَضِيَتْ نَفْسُهُ ، وَطابَتْ لَهُ الحَياةُ مَعَ زَوْجَتِهِ وَابْنَيْهِ وَابْنَتَيْهِ ؛ فَقَدِ اشْتَرى داراً ، واقْتَنى دَجاجًا كَثيراً : يَطْعَمونَ مِنْ لَحْمِهِ ، وَيَأكُلونَ مِنْ بَيْضِهِ ، وَيَبيعونَ ما يَفيضُ عَنْ حاجَتِهِمْ .

وَبَيْنَما كانَ جالِسًا أمامَ دارِهِ يَتَحَدَّثُ إلى أحَدِ أبْنائِهِ ، وَيَقُصُّ عَلَيْهِ بَعْضَ وَقائِعِ البادِيَةِ الَّتي نَزَحوا مِنْها ، وَيَصِفُ لَهُ ما كانوا يُعانونَهُ فيها مِنْ شَظَفِ العَيْشِ ، وَما كانوا يُكابِدونَهُ فيها مِنْ شَقاءِ الحالِ ؛ إذْ كانَتْ حَياتُهُمْ مُرْتَبِطَةً بِالمَطَرِ : إنْ هَطَلَ اخْضَرَّتِ الأرْضُ ، وَنَبَتَ البَقْلُ ، وَنَما العُشْبُ ؛ فَقَضوا عامًا طَيِّبًا ، وَإنْ ضَنَّتِ السَّماءُ بِالمَطَرِ أصابَهُم الجَدْبُ ، وَكانَ عامُهُمْ مَشْحونًا بِالفَقْرِ ، زاخِراً

بِالبُؤْسِ ، مُمْتَلِئًا بِالتَّعاسَةِ !

بَيْنَما هُوَ كَذَلِكَ إذْ رَأى أعْرابِيًّا ، يَبْدو أنَّهُ قادِمٌ مِنَ البادِيَةِ لِساعَتِهِ ؛ إذْ هُوَ أغْبَرُ الوَجْهِ ، أشْعَثُ الشَّعْرِ ، رَثُّ الثِّيابِ ، يَحْمِلُ عَلى كَتِفِهِ مِزْوَدَهُ الَّذي يَضَعُ فيهِ طَعامَهُ – وَما يُظَنُّ أنَّ فيهِ طَعامًا – وَفي يَدِهِ إداوَتُهُ الَّتي يَضَعُ فيها ماءَهُ ، وَما يُظَنُّ أنَّ فيها ماءً !

رَقَّ قَلْبُ الرَّجُلِ لِهَذا الأعْرابِيِّ القادِمِ مِنَ البادِيَةِ ، وَتَذَكَّرَ فيهِ حالَتَهُ يَوْمَ قَدِمَ مَدينَةَ البَصْرَةِ ، تَصْحَبُهُ زَوْجَتُهُ وَعِيالُهُ – فَعَزَمَ عَلَيْهِ أنْ يَنْزِلَ عِنْدَهُ ضَيْفًا ، يَسْتَريحُ مِنْ عَناءِ الطَّريقِ ، وَيُصْلِحُ مِنْ شَأْنِهِ ، ثُمَّ يَسْتَأنِفُ خُطواتِهِ إلى حَيْثُ يُريدُ .

اِسْتَجابَ الأعْرابِيُّ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ الَّتي أخْرَجَتْهُ مِنْ حيرَتِهِ ، وَيَسَّرَتْ عَلَيْهِ مِنْ أمْرِهِ ، وَ وَجَدَ فيها ما يَتَقَوّى بِهِ عَلى السَّفَرِ ، وَيَسْتَعينُ بِهِ عَلى وَعْثاءِ الطَّريقِ .

قالَ الرَّجُلُ لامْرَأتِهِ ، وَقَدِ اقْتَرَبَ مَوْعِدُ الغَداءِ : « اِشْوي لَنا دَجاجَةً نَتَغَدّى بِها .»

فَلَمّا حَضَرَ الغَداءُ جَلَسوا جَميعًا : الأعْرابِيُّ الضَّيْفُ ، وَالرَّجُلُ وَزَوْجَتُهُ ، وَابْناهُ وَابْنَتاهُ ، ثُمَّ دَفَعَ الرَّجُلُ الدَّجاجَةَ إلى الأعْرابِيِّ الضَّيْفِ ، وَقالَ لَهُ : « اِقْسِمْها بَيْنَنا .»

وَكانَ الرَّجُلُ يُضْمِرُ في نَفْسِهِ نَوْعًا مِنَ المُزاحِ ، وَضَرْبًا مِنَ الدُّعابَةِ ؛ إذْ إنَّ الأعْرابِيَّ قَدْ لا يَسْتَطيعُ أنْ يُقَسِّمَ الدَّجاجَةَ ، فَيُحْسِنَ القِسْمَةَ ، وَقَدْ يَفْسُدُ عَلَيْهِ أمْرُهُ فَلا يَحْظى مِنْها بِنَصيبٍ .

قالَ الأعْرابِيُّ : « إنَّني لا أُحْسِنُ القِسْمَةَ ؛ لكِنْ إذا لَمْ يَكُنْ مِنَ الأمْرِ بُدٌّ ، وَرَضيتُمْ بِقِسْمَتي ؛ قَسَمْتُها .»

قالَ الرَّجُلُ : « نَعَمْ ، إنَّنا نَرْضى قِسْمَتَكَ .»

تَناوَلَ الأعْرابِيُّ الضَّيْفُ الدَّجاجَةَ ، وَ وَضَعَها بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ فَصَلَ رَأْسَها عَنْ جَسَدِها ، وَقَدَّمَهُ لِلرَّجُلِ صاحِبِ البَيْتِ ، وَهُوَ يَقولُ لَهُ : « الرَّأْسُ لِلرَّأْسِ .»

ثُمَّ قَطَعَ الجَناحَيْنِ ، وَأعْطاهُما الابْنَيْنِ ، وَهُوَ يَقولُ : « الجَناحانِ لِلْجَناحَيْنِ .» وَبَعْدَ ذَلِكَ قَطَعَ السّاقَيْنِ ، وَناوَلَهُما الابْنَتَيْنِ ، وَهُوَ يَقولُ : « السّاقانِ لِلابْنَتَيْنِ .» ثُمَّ

قَطَعَ ذَنَبَ الدَّجاجَةِ ، وَقَدَّمَهُ لِلزَّوْجَةِ ، وَهُوَ يَقولُ لَها : «العَجُزُ لِلْعَجوزِ .» وَأخيرًا قالَ : « الزَّوْرُ لِلزّائِرِ .»

وَأخَذَ الدَّجاجَةَ بِأسْرِها لِنَفْسِهِ ، وَراحَ يَقْطَعُ مِنْها وَيأكُلُ ، وَهُمْ يَنْظُرونَ إلَيْهِ ، وَيَعْجَبونَ : كَيْفَ سَخِرَ مِنْهُمْ هَذا الأعْرابِيُّ القادِمُ مِنَ البادِيَةِ لِساعَتِهِ ؟

وَفي اليَوْمِ التّالي قالَ الرَّجُلُ لِزَوْجَتِهِ : « اِشْوي لَنا خَمْسَ دَجاجاتٍ ، وَقَدِّميها إلَيْنا لِنَتَغَدّى بِها .»

فَلَمّا حَضَرَ الغَداءُ ، قالَ الرَّجُلُ صاحِبُ البَيْتِ لِلأعْرابِيِّ الضَّيْفِ : « اِقْسِمْ بَيْنَنا ؛ فَالدَّجاجُ اليَوْمَ كَثيرٌ .»

قالَ الأعْرابِيُّ : « إنّي أظُنُّ أنَّكُمْ قَدْ تَضايَقْتُمْ مِنْ قِسْمَتي بَيْنَكُمْ أمْسِ ، وَ وَجَدْتُمْ في أنْفُسِكُمْ عَلَيَّ ، فَاطْلُبوا اليَوْمَ غَيْري .»

قالَ الرَّجُلُ : « لَمْ تَضِقْ صُدورُنا بِقِسْمَتِكَ ، وَلَمْ نَجِدْ في أنْفُسِنا عَلَيْكَ ، فَبِاللهِ إلا قَسَمْتَ بَيْنَنا !»

رَضَخَ الأعْرابِيُّ الضَّيْفُ لإلْحاحِ صاحِبِ البَيْتِ ، وَقَبِلَ أنْ يُقَسِّمَ الدَّجاجَ بَيْنَهُمْ ، وَقالَ لَهُمْ : « أتُحِبّونَ أنْ أقَسِّمَ



بَيْنَكُمْ شَفْعاً أمْ وَتْراً ؛ أي زَوْجاً أمْ فَرْداً ؟»

قالوا جَميعاً : « اِقْسِمْ بَيْنَنا وَتْراً . »

وَضَعَ الأعْرابِيُّ الدَّجاجَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ قالَ مُوَجِّهاً الحَديثَ إلى الرَّجُلِ صاحِبِ البَيْتِ : « أنْتَ وَزَوْجَتُكَ وَدَجاجَةٌ ثَلاثَةٌ . » ثُمَّ رَمى إلَيْهِما بِواحِدَةٍ .

ثُمَّ قالَ : « وَابْناكَ وَدَجاجَةٌ ثَلاثَةٌ . » وَرَمى إلَيْهِما بِواحِدَةٍ .

ثُمَّ قالَ : « وَابْنَتاكَ وَدَجاجَةٌ ثَلاثَةٌ . » وَرَمى إلَيْهِما



بِواحِدَةٍ .

وَاسْتَخْلَصَ لِنَفْسِهِ دَجاجَتَيْنِ قائِلاً : « وَأنا وَدَجاجَتانِ ثَلاثَةٌ . »

وَرَآهُمْ يَنْظُرونَ إلَيْهِ ، وَيَعْجَبونَ مِنْ قِسْمَتِهِ بَيْنَهُمْ ، وَسُخْرِيَتِهِ مِنْهُمْ ، فَقالَ لَهُمْ : « لَعَلَّكُمْ كَرِهْتُمْ هٰذِهِ القِسْمَةَ الَّتي قَسَمْتُها بَيْنَكُمْ ، وَضاقَ ذَرْعُكُمْ بي ، إنَّها قِسْمَةُ الوَتْرِ ، وَهِيَ لا تَجيءُ إلا كَما رَأَيْتُمْ . هَلْ يَسْتَطيعُ أحَدٌ مِنْكُمْ أنْ يَفْعَلَها خَيْراً مِمّا فَعَلْتُ ؟»

وَلكِنَّ عُيونَهُمْ ما زالَتْ إِلَيْهِ مُصَوَّبَةً ، وَبِشَفَتَيْهِ مُعَلَّقَةً ، فَأَرْدَفَ قائِلاً : « هَلْ لَكُمْ في قِسْمَةِ الشَّفْعِ ؟»

تَراخَتْ نَظَراتُهُمْ ، وَقالوا لَهُ : « نَعَمْ ، اِقْسِمْ بَيْنَنا قِسْمَةَ الشَّفْعِ .»

ضَمَّ الأَعْرابِيُّ الضَّيْفُ الدَّجاجاتِ إِلَيْهِ ، ثُمَّ قَلَّبَ النَّظَرَ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ الرَّجُلِ وَعِيالِهِ ، كَأَنَّما يَسْتَوْثِقُ مِنْ رَغْبَتِهِمْ ، وَيَتَأَكَّدُ مِنْ صِدْقِ طَوِيَّتِهِمْ ، ثُمَّ قالَ مُوَجِّهًا حَديثَهُ إِلى الرَّجُلِ : « أَنْتَ وابْناكَ وَدَجاجَةٌ أَرْبَعَةٌ .» وَرَمى إِلَيْهِمْ بِواحِدَةٍ .

ثُمَّ قالَ مُوَجِّهًا حَديثَهُ إِلى الزَّوْجَةِ : « وَأَنْتِ وَابْنَتاكِ وَدَجاجَةٌ أَرْبَعَةٌ .» وَرَمى إِلَيْهِنَّ بِواحِدَةٍ . وَأَعْقَبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: « وَأَنا وَثَلاثُ دَجاجاتٍ أَرْبَعَةٌ .»

وَاسْتَخْلَصَ لِنَفْسِهِ الدَّجاجاتِ الثَّلاثَ ، وَضَمَّهُنَّ إِلَيْهِ ، وَهُوَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ إِلى السَّماءِ ، وَيَبْسُطُها بِالشُّكْرِ وَالدُّعاءِ ، وَيَقولُ : « اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ ، أَنْتَ الَّذي فَتَحَ عَلَيَّ ، وَفَهَّمَني إِيّاها !»

وَأَنا – أَيْضًا – عَبْدُ المَلِكِ !

ما كادَ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ مَرْوانَ يَلي شُئونَ الخِلافَةِ ، وَيَتَرَبَّعُ عَلى عَرْشِ السُّلْطانِ ، حَتّى شَعَرَ أَنَّ الأَرْضَ توشِكُ أَنْ تَميدَ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ ؛ فَلَمْ يَقَرَّ لَهُ قَرارٌ ، وَلَمْ تَطِبْ لَهُ حَياةٌ ؛ فَأَعْداؤُهُ يَعْمَلونَ عَلى تَنْغيصِ عَيْشِهِ ، وَيَجِدّونَ في تَقْويضِ عَرْشِهِ .

وَكانَ أَقْواهُمْ شَكيمَةً ، وَأَنْفَذَهُمْ عَزيمَةً ، وَأَكْثَرَهُمْ أَتْباعًا – هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ ؛ فَقَدْ بايَعَتْهُ مَكَّةُ المُكَرَّمَةُ ، وَالمَدينَةُ المُنَوَّرَةُ ، وَبَسَطَ سُلْطانَهُ عَلى مِصْرَ وَاليَمَنِ وَخُراسانَ .

ضاقَ صَدْرُ عَبْدِ المَلِكِ بِابْنِ الزُّبَيْرِ ، وَنَفِدَ صَبْرُهُ – فَقَرَّرَ أَنْ يَسيرَ إِلَيْهِ بِنَفْسِهِ ، في جَيْشٍ كَثيرِ العَدَدِ ، قَوِيِّ العُدَدِ ؛ كَيْ يَقْضِيَ عَلى نُفوذِهِ ، وَيَتَخَلَّصَ مِنْ بَأْسِهِ ، وَيَمُدَّ سُلْطانَهُ عَلى ما تَحْتَ يَدِهِ مِنَ البِلادِ .

وَاسْتَصْحَبَ عَبْدُ المَلِكِ مَعَهُ فيمَن اسْتَصْحَبَ مِنْ وُزَرائِهِ وَمُسْتَشاريهِ عَمْرَو بْنَ سَعيدِ بْنِ العاصِ ، وَكانَ عَمْرٌو هَذا يُضْمِرُ الشَّرَّ لِعَبْدِ المَلِكِ ، وَتَنْطَوي نَفْسُهُ عَلى نِيَّةٍ فاسِدَةٍ ، وَسَريرَةٍ خَبيثَةٍ ؛ فَقَدْ كانَ يَطْمَعُ في الخِلافَةِ ، وَيَتَمَنّى لَوِ اسْتَطاعَ التَّخَلُّصَ مِنْ عَبْدِ المَلِكِ ، أَوْ الانْقِضاضَ عَلَيْهِ في لَحْظَةٍ مِنْ لَحَظاتِ ضَعْفِهِ ، أَوْ في وَقْتٍ مِنْ أَوْقاتِ غَفْلَتِهِ .

وَكانَ عَبْدُ المَلِكِ يَعْرِفُ هَذا عَنْ عَمْرٍو ، وَيَفْطِنُ لَهُ ، وَلَكِنَّهُ كانَ يُظْهِرُ لَهُ الاحْتِرامَ وَالتَّوْقيرَ ، وَيَتَرَقَّبُ الفُرْصَةَ الَّتي تَسْنَحُ لَهُ فَيَتَخَلَّصُ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ ضَجيجٍ .

وَلَمّا بَعُدَ عَبْدُ المَلِكِ عَنْ دِمَشْقَ ، وَأَوْغَلَ في السَّيْرِ إِلى مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ لِمُلاقاةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ - تَظاهَرَ عَمْرٌو بِالمَرَضِ ، وَاسْتَأْذَنَ عَبْدَ المَلِكِ في أَنْ يَعودَ إِلى دِمَشْقَ ؛ لأَنَّ العِلَّةَ قَدِ اشْتَدَّتْ بِهِ ، وَلَمْ يَعُدْ يَقْوى عَلى السَّيْرِ ، وَلَمْ تَعُدْ لَهُ قُدْرَةٌ جِسْمِيَّةٌ عَلى القِتالِ ، وَلا قُدْرَةٌ عَقْلِيَّةٌ عَلى المَشورَةِ ، فَقَدِ اسْتَبَدَّتِ العِلَّةُ بِجِسْمِهِ ، وَطَغَتْ عَلى عَقْلِهِ . وَوَعَدَ بِأَنْ يَلْحَقَ بِهِمْ مَتى بَرِئَ مِنْ دائِهِ ، وَشُفِيَ مِنْ سَقَمِهِ ؛ فَأَذِنَ لَهُ

عَبْدُ المَلِكِ ، وَهُوَ يَشُكُّ في عِلَّتِهِ ، وَيَخْشى ثَوْرَتَهُ .

دَخَلَ عَمْرُو بْنُ سَعيدٍ مَدينَةَ دِمَشْقَ وَجَمَعَ النّاسَ حَوْلَهُ ، وَتَأَلَّفَ قُلوبَهُمْ ، وَحَرَّضَهُمْ عَلى عَبْدِ المَلِكِ ؛ فَخَلَعوهُ وَأَعْلَنوا تَمَسُّكَهُمْ بِعَمْرٍو أَميرًا عَلَيْهِمْ . وَأَخَذَ عَمْرٌو في تَحْصينِ مَدينَةِ دِمَشْقَ ، وَإِصْلاحِ قِلاعِها وَأَسْوارِها ؛ كَيْ يَسْتَطيعَ حِمايَتَها ، وَصَدَّ عَبْدِ المَلِكِ وَجَيْشِهِ عَنْها .

وَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ المَلِكِ - وَهُوَ في طَريقِهِ إِلى مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ، لَمْ يَصِلْها بَعْدُ - كَما بَلَغَهُ أَنَّ صَنيعَ عَمْرٍو ، وَمُبايَعَةَ أَهْلِ دِمَشْقَ لَهُ - شَجَّعَ أَميرَ حِمْصَ عَلى أَنْ يَنْزِعَ يَدَهُ مِنْ طاعَتِهِ ، وَيَتَنَصَّلَ مِنْ بَيْعَتِهِ ، وَيُعْلِنَ مُتابَعَتَهُ لابْنِ الزُّبَيْرِ ، وَكَذَلِكَ اسْتَشْرَفَ أُمَراءُ بَعْضِ البِلادِ لِمُخالَفَةِ عَبْدِ المَلِكِ ، وَمُشايَعَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ ، وَمِنْهُمْ أَميرُ فِلَسْطينَ .

جَمَعَ عَبْدُ المَلِكِ وُزَراءَهُ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ أَمْرَهُ ، فَلَمّا سَمِعوا قَوْلَهُ ذَهِلَتْ نُفوسُهُمْ ، وَطاشَتْ عُقولُهُمْ ، وَعَقَدَتِ الدَّهْشَةُ أَلْسِنَتَهُمْ ، وَأَلْجَمَتْ أَفْواهَهُمْ ؛ فَلَمْ يُحيروا جَوابًا ، وَلَمْ يَسْتَطيعوا نُطْقًا .

قالَ عَـبْـدُ المَلِكِ : « مـا لَكُمْ لا تَنْطِقـونَ؟ هَذا وَقْتُ الحاجَةِ إلَيْكُمْ ؟»

بَعْدَ جَهْدٍ ، قالَ كَبيرُهُمْ : « وَدِدْتُ – يا مَوْلايَ – لَوْ صِـرْتُ طائِراً فَـوْقَ عـودِ شَـجَرَةٍ ، فَـلا أَمَسُّ الأَرْضَ حَـتّى تَنْقَضِيَ هَذِهِ الفِتْنَةُ .»

أَدْرَكَ عَـبْـدُ المَلِكِ مـا وَراءَ وُزَرائِهِ مِنْ فَـسـادِ الرَّأْيِ ، وَضَعْفِ العَزيمَةِ ، وَقِلَّةِ الحيلَةِ ، فَقـالَ : « اُمْكُثوا حَيْثُ أَنْتُمْ . لا يَبْرَحْ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَكانَهُ حَتّى أَعودَ .»

« سَمْعاً وَطاعَةً .»

تَخَيَّرَ عَبْدُ المَلِكِ جَماعَةً مِنْ أَتْباعِهِ ، يَعْرِفُ قُوَّةَ بَأْسِهِمْ وَشَجاعَتَهُمْ ، وَيَعْلَمُ صِدْقَ إِخْلاصِهِمْ وَ وَلائِهِمْ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتْبَعوهُ مُتَباعِدينَ عَنْهُ ، مُتَفَرِّقينَ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ، حَتّى لا يَبْدُوَ أَنَّهُ مَوْكِبٌ لأَميرٍ .

وَسارَ حَتّى انْتَهى بِهِ المَسيرُ إِلى شَيْخٍ طاعِنٍ في السِّنِّ ، تَبْدو عَلَيْهِ رِقَّةُ الحالِ ؛ فَثِيابُهُ خَلِقَةٌ بالِيَةٌ ، وَوَجْهُهُ مُمْتَلِئٌ بِالغُضونِ وَالتَّجاعيدِ ، وَيَداهُ مَعْروقَتانِ يابِسَتانِ ، وَساقاهُ

كَأَنَّهُما عَصَوانِ .. بَدَتْ عَلَيْهِ آثارُ السِّنينِ الَّتي عَرَكَتْها وَعَرَكَتْهُ . وَكانَ الرَّجُلُ يُحاوِلُ أَنْ يَجْمَعَ بَعْضَ الثِّمارِ الَّتي يَقْتاتُ بِها ، وَهِيَ ثِمارٌ شَهِيَّةٌ مِنْ شَجَرِ السُّمّاقِ ، الَّذي يَنْبُتُ في المُرْتَفَعاتِ وَالجِبالِ .

قالَ عَبْدُ المَلِكِ : « السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها الشَّيْخُ .»

« وَعَلَيْكُمُ السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللهِ .»

« هَلْ لي أَنْ أُعينَكَ فيما تَعْمَلُ ؟»

« حُبّاً وَكَرامَةً ، يا وَلَدي .»

« أَ تَعيشُ وَحيداً في هَذا المَكانِ المُنْعَزِلِ ؟»

« إِنَّني أَخْلو إِلى اللهِ ، أَتَأَمَّلُ في مَلَكوتِهِ ، وَأَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِعِبادَتِهِ .»

« أَ تَعْلَمُ شَيْئاً عَنْ هَذا الجَيْشِ الَّذي يَنْزِلُ قَريباً مِنْكَ ؟»

« وَلِماذا تَسْأَلُ عَنْهُ ؟»

« أُريدُ أَنْ أَتَقَرَّبَ مِنْ أَميرِهِ ، وَأَنْتَظِمَ في سِلْكِهِ ، وَأَغْدُوَ واحِداً مِنْ جُنودِهِ .»

فَبَرَقَتْ عَيْنا الشَّيْخِ عَلى ما فيهِما مِنْ ضَعْفٍ وَكَلالٍ ، وَنَظَرَ إلى عَبْدِ المَلِكِ نَظْرَةً فاحِصَةً ، وَقالَ لَهُ : « إنَّني أرى عَلَيْكَ عَلاماتِ الرِّياسَةِ ، فَيَحْسُنُ بِكَ أنْ تَصْرِفَ نَفْسَكَ عَمّا تُريدُ . »

« وَلِماذا ، يا عَمِّ ؟ »

« لأنَّ هَذا الأميرَ الَّذي تَقْصِدُهُ ، وَتَرْغَبُ في أنْ تَصِلَ أسْبابَكَ بِأسْبابِهِ ، قَدِ انْفَرَطَ عِقْدُهُ ، وَخَرَجَ عَلَيْهِ أشْياعُهُ . وَالسُّلْطانُ إذا اضْطَرَبَ أمْرُهُ كانَ كالبَحْرِ الهائِجِ يُغْرِقُ كُلَّ ما في طَريقِهِ ! »

« أيُّها الشَّيْخُ ، إنَّ قَوْلَكَ هَذا يُغْريني بِالحِرْصِ عَلى مُصاحَبَةِ هَذا الأميرِ ، وَيَدْفَعُني بِقُوَّةٍ إلى مُتابَعَتِهِ ، فَهَلْ لَكَ أنْ تُشيرَ عَلَيَّ بِرَأيٍ ؟ »

قالَ الشَّيْخُ ، وَقَدْ أدْرَكَ عَزْمَ الرَّجُلِ عَلى تَنْفيذِ ما أرادَ ، وَأنَّهُ لا يَخافُ وَلا يَهابُ : « إنَّ هَذِهِ المُصيبَةَ الَّتي نَزَلَتْ بِالسُّلْطانِ – يا وَلَدي – تَحارُ فيها العُقولُ ، وَتَتَبَلَّدُ الأذْهانُ ، وَلا يَنْفُذُ في أمْرِها الفِكْرُ . »

وَصَمَتَ لَحْظَةً خالَها عَبْدُ المَلِكِ دَهْرًا طَويلاً ، ثُمَّ أرْدَفَ : « وَمَعَ ذَلِكَ فَلَنْ أرُدَّكَ خائِبًا ، وَلَنْ أبْخَلَ عَلَيْكَ بِما أسْتَطيعُ مِنْ رَأيٍ . »

قالَ عَبْدُ المَلِكِ : « قُلْ ، يا سَيِّدي ، جَزاكَ اللهُ عَنّي خَيْراً ! »

فَأطْرَقَ الشَّيْخُ قَليلاً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأسَهُ ، وَقَدْ بَدَتْ عَلَيْهِ أماراتُ التَّفْكيرِ العَميقِ ، ثُمَّ قالَ : « إذا قَصَدْتَ هَذا الأميرَ ، وَطابَتْ نَفْسُكَ لِصُحْبَتِهِ ، فانْظُرْ في أمْرِهِ : إنْ وَجَدْتَهُ عازِمًا عَلى السَّيْرِ إلى مَكَّةَ لِلِقاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ – فاعْلَمْ أنَّهُ خائِبٌ في سَعْيِهِ ، ضالٌّ في فِكْرِهِ ؛ فابْتَعِدْ عَنْهُ ، وَلا تَرْبِطْ مَصيرَكَ بِمَصيرِهِ . وَإنْ رَأيْتَهُ قَدْ تَخَلّى عَنْ سَيْرِهِ إلى مَكَّةَ ، وَعَزَمَ عَلى العَوْدَةِ إلى دِمَشْقَ – فاعْلَمْ أنَّهُ راشِدٌ في فِكْرِهِ ، وَتَوَقَّعْ لَهُ النَّصْرَ عَلى عَدُوِّهِ ؛ فَتَعاوَنْ مَعَهُ ، وَاغْنَمْ صُحْبَتَهُ . »

قالَ عَبْدُ المَلِكِ ، وَقَدْ أثارَتْ هَذِهِ المَشورَةُ فِكْرَهُ : « وَما الفَرْقُ بَيْنَ سَيْرِ الأميرِ إلى مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ لِلِقاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ

وَعَوْدَتِهِ إلى دِمَشْقَ لِلِقاءِ ابْنِ سَعيدٍ ؟ كِلا الأمْرَيْنِ مَسيرٌ إلى طِعانٍ وَقِتالٍ .»

« لا ، يا وَلَدي ، إنَّ مَسيرَ الأميرِ إلى ابْنِ الزُّبَيْرِ لَيْسَ كَمَسيرِهِ إلى ابْنِ سَعيدٍ ؛ بَلْ يَخْتَلِفانِ اخْتِلافًا بَيِّنًا ، وَسَأُوَضِّحُ لَكَ ما غَمُضَ عَلَيْكَ : إنَّ عَبْدَ المَلِكِ إذا قَصَدَ ابْنَ الزُّبَيْرِ ، وَسَعى إلى قِتالِهِ – كانَ في صورَةِ الظّالِمِ ؛ لأنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ لَمْ يَغْتَصِبْ مِنْهُ مُلْكَهُ ، وَلَمْ يَتَعَدَّ عَلى سُلْطانِهِ ؛ وَإنَّما بايَعَهُ أَهْلُ تِلْكَ البِلادِ . أمّا إذا قَصَدَ ابْنَ سَعيدٍ ، وَسَعى إلى قِتالِهِ – كانَ في صورَةِ المَظْلومِ الَّذي يُدافِعُ عَنْ حَقِّهِ ، وَيَعْمَلُ عَلى اسْتِرْدادِهِ ؛ لأنَّ ابْنَ سَعيدٍ نَكَثَ عَهْدَهُ ، وَخانَ أمانَتَهُ ، وَ وَثَبَ عَلى مُلْكٍ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلا لأبيهِ مِنْ قَبْلِهِ ، وَإنَّما كانَ لِعَبْدِ المَلِكِ وَقَوْمِهِ .»

أعْجَبَ عَبْدُ المَلِكِ بِرَأْيِ الشَّيْخِ ، وَ وَقَعَ مِنْ نَفْسِهِ مَوْقِعًا حَسَنًا ، وَصادَفَ مِنْ قَلْبِهِ قَبولاً وَ رِضًا . وَراحَ يُوازِنُ ، في ذِهْنِهِ ، بَيْنَ هَذا الشَّيْخِ الطّاعِنِ في السِّنِّ ، وَما حَواهُ ذِهْنُهُ مِنْ خِبْرَةٍ وَتَجْرِبَةٍ ، وَما هَداهُ إلَيْهِ عَقْلُهُ مِنْ رَأْيٍ سَديدٍ ،

وَبَيْنَ وُزَرائِهِ الَّذينَ عَقَدَ الخَبَرُ ألْسِنَتَهُمْ ، وَشَلَّ تَفْكيرَهُمْ ، فَوَقَفوا صامِتينَ حائِرينَ ، لا غَناءَ فيهِمْ ، وَلا جَدْوى مِنْهُمْ . ثُمَّ قالَ لِلشَّيْخِ بَعْدَ فَتْرَةٍ : « أيُّها الشَّيْخُ ، إنَّ رَأْيَكَ رَشيدٌ ، وَمَقالَكَ سَديدٌ – فَزِدْني تَبْصِرَةً وَنُصْحًا .»

قالَ الشَّيْخُ : « سَأَضْرِبُ لَكَ مَثَلاً يَشْفي نَفْسَكَ ، وَيُزيلُ كُلَّ ما لَدَيْكَ مِنْ لَبْسٍ وَغُموضٍ .»

« هاتِ ، يا سَيِّدي ، فَقَدْ تاقَتْ نَفْسي إلَيْهِ .»

قالَ الشَّيْخُ : « يُحكى أنَّ ثَعْلَبًا كانَ اسْمُهُ « ظالِمًا » بَنى لَهُ جُحْرًا لِيَسْكُنَهُ ، وَلَمّا فَرَغَ مِنْ بِنائِهِ كانَ مُعْجَبًا بِهِ ، وَمُغْتَبِطًا لانْتِهائِهِ مِنْهُ ، وَمَسْرورًا لأنَّهُ قَدِ اتَّخَذَ مَأْوًى يَأْوي إلَيْهِ . وَطابَ لَهُ المُقامُ في جُحْرِهِ ، وَبَلَغَ مِنْ شِدَّةِ أُنْسِهِ بِهِ ، وَاطْمِئْنانِهِ إلَيْهِ – أنَّهُ لا يَكادُ يَخْرُجُ مِنْهُ إلا لِلْبَحْثِ عَنِ الطَّعامِ ، فَإذا ما قَضى وَطَرَهُ عادَ إلَيْهِ مُسْرِعًا .

« وَذاتَ يَوْمٍ خَرَجَ – كَعادَتِهِ – يَبْتَغي طَعامَهُ ، وَلَمّا عادَ إلى جُحْرِهِ وَجَدَ حَيَّةً فيهِ ، وَلَبِثَ أمامَ الجُحْرِ يَنْتَظِرُ خُروجَها ، وَطالَ بِهِ الانْتِظارُ وَلَمْ تُحَرِّكِ الحَيَّةُ ساكِنًا ، وَلَمْ

تُفَكِّرُ في الخُروجِ مِنَ الجُحْرِ ؛ فَأَيْقَنَ الثَّعْلَبُ « ظالِمٌ » أَنَّها قَدِ اسْتَوْطَنَتْهُ ، وَأَنَّهُ ما مِنْ سَبيلٍ إِلى زَحْزَحَتِها عَنْهُ وَإِجْلائِها مِنْهُ .

« هامَ « ظالِمٌ » على وَجْهِهِ ، يَبْتَغي لِنَفْسِهِ مَأْوًى ، وَأَجْهَدَهُ البَحْثُ دونَ فائِدَةٍ ، وَحينَ اشْتَدَّ بِهِ التَّعَبُ ، وَاسْتَبَدَّ بِهِ السَّغَبُ ، نَظَرَ فَوَجَدَ جُحْرًا مَتينًا رائِعًا ، بَيْنَ أَشْجارٍ باسِقَةٍ ، وَثِمارٍ يانِعَةٍ ، وَمِياهٍ جارِيَةٍ – فَراقَهُ مَنْظَرُهُ ، وَأَعْجَبَهُ مَوْقِعُهُ ، وَفُتِنَتْ نَفْسُهُ بِتَحْصينِهِ وَمَناعَتِهِ ، فَسَأَلَ عَنْهُ بَعْضَ الحَيَواناتِ مِنْ حَوْلِهِ ، فَقيلَ لَهُ : إِنَّهُ لِثَعْلَبٍ طَيِّبٍ اسْمُهُ « مُفَوَّضٌ » ، وَرِثَهُ عَنْ أَبيهِ .

« ناداهُ « ظالِمٌ » فَخَرَجَ إِلَيْهِ مُسْرِعًا ، وَتَقَدَّمَ مِنْهُ مُرَحِّبًا ، وَأَسْرَعَ بِهِ إِلى جُحْرِهِ ، يُطْعِمُهُ مِنْ طَعامِهِ ، وَيُشْرِكُهُ في شَرابِهِ . فَلَمّا أَنِسَ الثَّعْلَبُ « ظالِمٌ » إِلى المَكانِ ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ مِنْ نَفْسِ الثَّعْلَبِ « مُفَوَّضٍ » مَوْقِعًا طَيِّبًا ، راحَ يُخْبِرُهُ خَبَرَهُ ، وَيَقُصُّ عَلَيْهِ – في أَسًى وَحُزْنٍ – حِكايَتَهُ ، وَيَشْكو إِلَيْهِ ضُرَّهُ ، وَالثَّعْلَبُ « مُفَوَّضٌ » يَرِقُّ لَهُ ، وَيُشْفِقُ عَلَيْهِ ، وَيُفَكِّرُ في الوَسيلَةِ الَّتي يُعينُهُ بِها ،

ثُمَّ قالَ لَهُ : « هَيّا بِنا نَنْطَلِقْ إِلى جُحْرِكَ ؛ لِنَنْظُرَ كَيْفَ نَسْتَطيعُ إِخْراجَ الحَيَّةِ الَّتي احْتَلَّتْهُ . »

« وَانْطَلَقا ، فَلَمّا بَلَغا الجُحْرَ وَجَدَهُ « مُفَوَّضٌ » في مَكانٍ بَعيدٍ ، وَمَوْقِعُهُ غَيْرُ حَصينٍ ، لا تَرِفُّ حَوْلَهُ أَشْجارٌ ، وَلا تَدْنو مِنْهُ ثِمارٌ ؛ فَقالَ لِصاحِبِهِ : « ما الَّذي يُعْجِبُكَ في هَذا المَكانِ ؟ وَلِماذا تَحْرِصُ عَلَيْهِ ؟ هَيّا بِنا إِلى المَوْقِعِ الَّذي أَنا فيهِ ؛ فَهُوَ خَيْرٌ مِنْ هَذا المَكانِ ، وَسَأُعاوِنُكَ عَلى أَنْ تَبْنِيَ لَكَ جُحْرًا بِجانِبي . »

« قالَ « ظالِمٌ » : « إِنَّني لا أَعْدِلُ بِوَطَني مَكانًا آخَرَ ، وَسَأَموتُ دونَهُ . »

« قالَ « مُفَوَّضٌ » : « صَدَقْتَ ! المَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَياةِ الذُّلِّ وَالعارِ . تَعالَ ، بِتْ مَعي اللَّيْلَةَ ، وَسَأَنْظُرُ فيما يَسْنَحُ مِنَ الرَّأْيِ وَالمَكيدَةِ لإِجْلاءِ الحَيَّةِ عَنْ جُحْرِكَ . »

« وَمَضَيا إِلى جُحْرِ « مُفَوَّضٍ » لِيَقْضِيا لَيْلَتَهُما : أَمّا « مُفَوَّضٌ » فَغارِقٌ في تَفْكيرِهِ ، يَبْحَثُ عَنْ حيلَةٍ يَسْتَدْرِجُ بِها الحَيَّةَ ؛ كَيْ يُخْرِجَها مِنْ جُحْرِ « ظالِمٍ » ،

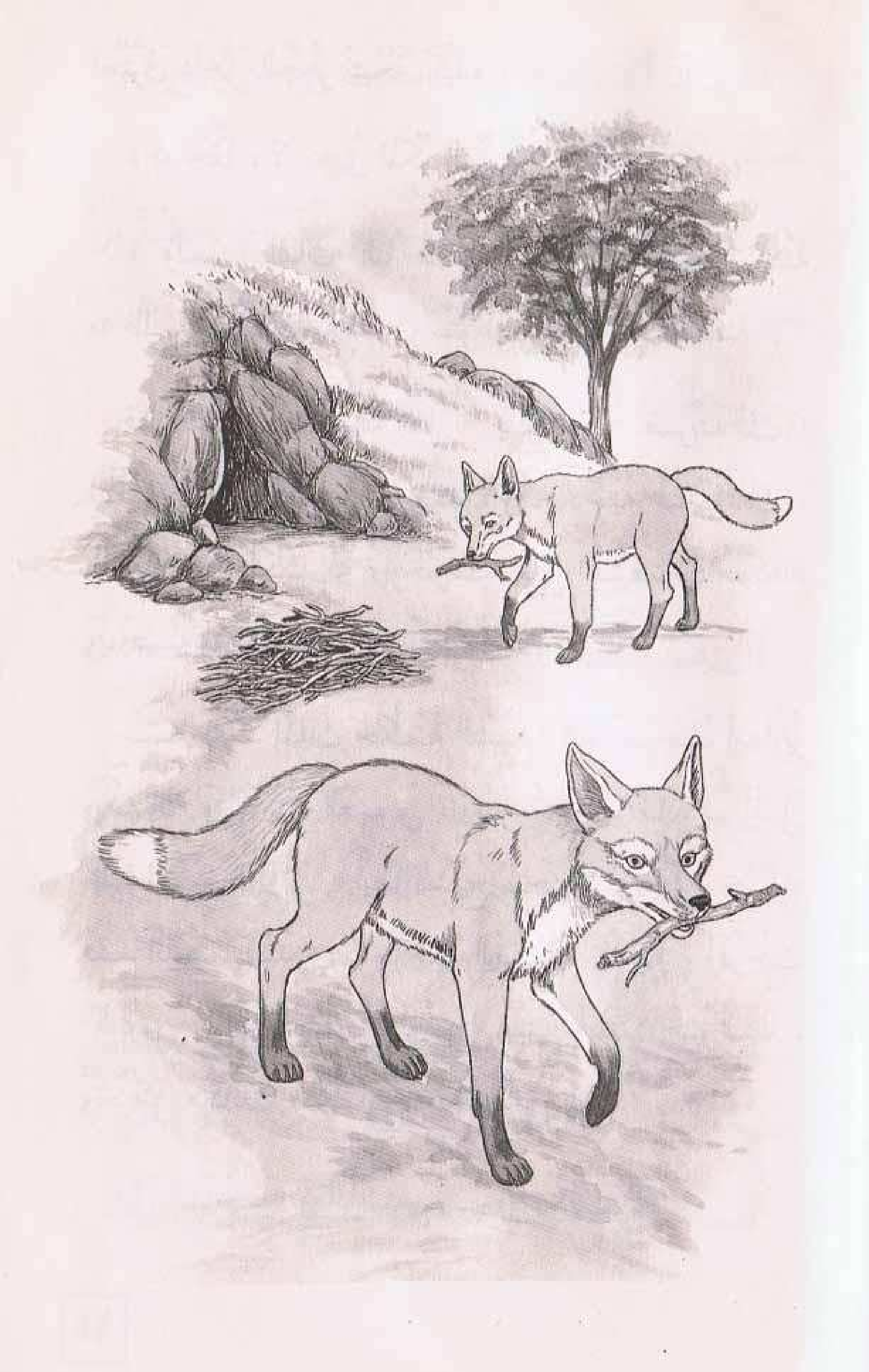
وَيُعيدَ مَأواهُ إلَيْهِ ، حَتّى لا يَقْتُلَهُ الحَنينُ إلى وَطَنِهِ ، وَالحُزْنُ عَلى فَقْدِهِ . وَأَمّا « ظالِمٌ » فَغارِقٌ في تَفْكيرِهِ ، يَبْحَثُ عَنْ حيلَةٍ ، يُخْرِجُ بِها صاحِبَهُ « مُفَوَّضًا » مِنْ جُحْرِهِ ، وَيُقْصيهِ عَنْهُ ، وَيَسْتَولي عَلَيْهِ ، وَيَغْتَصِبُهُ مِنْهُ . وَكانَ كُلَّما أَجالَ بَصَرَهُ في جَوانِبِ الجُحْرِ ، وَرَأى سَعَتَهُ وَعُمْقَهُ ، وَمَتانَتَهُ وَتَحْصينَهُ - اِشْتَدَّتْ رَغْبَتُهُ في الحُصولِ عَلَيْهِ ، والحِرْصِ عَلى إبْعادِ مالِكِهِ « مُفَوَّضٍ » عَنْهُ .

« وَلَمّا أَسْفَرَ الصُّبْحُ ، وَكانَ كِلاهُما قَدْ قَضى لَيْلَتَهُ مُؤَرَّقًا مُسَهَّدًا ، وَبَدا عَلَيْهِما أَثَرُ الإجْهادِ وَالإرْهاقِ ، قالَ « مُفَوَّضٌ » : « يا أَخي ، لَنْ نَسْتَسْلِمَ لِما أَصابَنا مِنْ تَعَبٍ ، هَيّا بِنا نَجْمَعْ حَطَبًا كَثيرًا ، ثُمَّ نَجْعَلْهُ حُزْمَتَيْنِ كَبيرَتَيْنِ ، فَإذا حَلَّ المَساءُ حَمَلْناهُما إلى بابِ جُحْرِكَ ، وَالْتَمَسْنا مِنْ تِلْكَ الخِيامِ جَذْوَةً مِنْ نارٍ ، ثُمَّ أَشْعَلْنا النّارَ في الحَطَبِ ، فَإذا ما اشْتَدَّ وَهَجُ النّارِ وَخَرَجَتِ الحَيَّةُ مِنَ الجُحْرِ ماتَتْ مُحْتَرِقَةً ، وَإنْ بَقِيَتْ في الجُحْرِ لَمْ تُفارِقْهُ خَشْيَةَ وُقوعِها في النّارِ ماتَتْ مُخْتَنِقَةً .»

« قالَ « ظالِمٌ » : « نِعْمَ الرَّأْيُ ما رَأَيْتَ ! هَيّا بِنا .»

« وَذَهَبا يَحْتَطِبانِ في هِمَّةٍ وَنَشاطٍ ، وَكُلٌّ مِنْهُما يُفَكِّرُ في غَيْرِ ما يُفَكِّرُ فيهِ صاحِبُهُ ؛ « فَمُفَوَّضٌ » يُدَبِّرُ لِلْحَيَّةِ مَكيدَةً ، وَيَعْمَلُ عَلى تَخْليصِ صاحِبِهِ مِنْ شَرٍّ وَقَعَ بِهِ ، وَمُصيبَةٍ نَزَلَتْ بِساحَتِهِ ، وَ «ظالِمٌ » يُدَبِّرُ مَكيدَةً لِصاحِبِهِ الَّذي يُعينُهُ ، فَهُوَ لا يَسْعى الآنَ إلى تَخْليصِ وَطَنِهِ أَوْ جُحْرِهِ مِنَ الحَيَّةِ الَّتي اسْتَوْطَنَتْهُ ، وَلا يَعْنيهِ مِنَ الأَمْرِ إلا أَنْ يَمْكُرَ بِصاحِبِهِ « مُفَوَّضٍ » ، وَيَغْتَصِبَ جُحْرَهُ مِنْهُ .

« وَما إنْ فَرَغا مِنْ جَمْعِ الحَطَبِ وَحَزْمِهِ ، وَنَقْلِهِ إلى جِوارِ جُحْرِ « مُفَوَّضٍ » ؛ اِسْتِعْدادًا لِنَقْلِهِ إلى جُحْرِ « ظالِمٍ » ابْتِغاءَ القَضاءِ عَلى الحَيَّةِ - حَتّى كانَ المَساءُ قَدْ أَقْبَلَ ، فانْطَلَقَ « مُفَوَّضٌ » إلى الخِيامِ القَريبَةِ يَلْتَمِسُ جَذْوَةً مِنَ النّارِ ، وَانْتَهَزَ « ظالِمٌ » الفُرْصَةَ ، وَأَخَذَ إحْدى الحُزْمَتَيْنِ فَنَحّاها بَعيدًا ، بِحَيْثُ لا يَراها « مُفَوَّضٌ » حينَ عَوْدَتِهِ ، وَأَخَذَ الأُخْرى فَسَدَّ بِها بابَ الجُحْرِ - بَعْدَ أَنْ دَخَلَهُ - سَدًّا مَنيعًا ، وَقالَ في نَفْسِهِ :



«« إنَّ « مُفـوَّضـًا »حينَ يَعـودُ ، وَيَرى بابَ الجُحْـرِ قَـدْ أوصِدَ إيصاداً قَوِيًّا فَلَنْ يَمْلِكَ مِنْ أمْرِ نَفْسِهِ شَيْئًا ، وَلأنَّهُ ثَعْلَبٌ طَيِّبٌ فَسَيَذْهَبُ يَبْحَثُ لِنَفْسِهِ عَنْ مَأْوًى ، وَيَتْرُكُني - لِضَعْفِ حيلَتِهِ - أنْعَمُ بِما اسْتَوْلَيْتُ عَلَيْهِ . وَإذا واتَتْهُ الشَّجاعَةُ وَفَكَّرَ في مُحاصَرَتي - فَإنَّ هَذا الطَّعامَ الَّذي ادَّخَرَهُ في داخِلِ الجُحْرِ يَكْفيني مُدَّةً طَويلَةً ، تَضيقُ فيها نَفْسُهُ ، وَتَزْهَقُ روحُهُ ، فَيَنْصَرِفُ عَنّي يائِساً !»»

« عادَ «« مُفَوَّضٌ »» وَقَدِ الْتَمَسَ قَبَساً مِنَ النّارِ فَلَمْ يَجِدْ صاحِبَهُ ، وَلَمْ يَرَ الحَطَبَ ؛ فَظَنَّ أنَّهُ قَدْ حَمَلَ الحُزْمَتَيْنِ ، وَسارَ بِهِما إلى الجُحْرِ وَحْدَهُ ، فَوَضَعَ قَبَسَ النّارِ أمامَ جُحْرِهِ ، وَانْطَلَقَ يَعْدو كَيْ يَلْحَقَ بِصاحِبِهِ ، وَيُعاوِنَهُ في حَمْلِ الحَطَبِ إلى الجُحْرِ ، وَلَمْ يَبْتَعِدْ إلا قَليلاً عَنْ جُحْرِهِ حَتّى أحَسَّ النّارَ مُشْتَعِلَةً مُتَوَهِّجَةً مِنْ خَلْفِهِ ، فاسْتَدارَ يَنْظُرُ ما حَدَثَ ، وَإذا بِهِ يَجِدُ إحْدى الحُزْمَتَيْنِ مُشْتَعِلَةً أمامَ بابِ جُحْرِهِ ، وَهِيَ تِلْكَ الَّتي أوْصَدَ بِها «« ظالِمٌ »» البابَ عَلَيْهِ ، وَيَرى الأخْرى مُخَبَّأةً بَعيداً عَنِ الجُحْرِ - فَأدْرَكَ حينَئِذٍ صَنيعَ «« ظالِمٍ »» ، وَعَلِمَ مَكيدَتَهُ وَمَكْرَهُ ، وَأبْصَرَهُ وَقَدِ

احْتَرَقَ داخِلَ الجُحْرِ نَتيجَةَ كَيْدِهِ ؛ فَقالَ :

« ‹‹ حَقًّا ، لا يَحيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إلا بِأَهْلِهِ !›› »

« وَلَمّا انْطَفَأَتِ النّارُ دَخَلَ جُحْرَهُ ، وَاحْتَمَلَ جُثَّةَ ‹‹ ظالِمٍ ›› فَأَلْقاها بَعيداً ، واسْتَوْطَنَ جُحْرَهُ آمِناً مُطْمَئِنا .»

قالَ الشَّيْخُ : « فَهَذا المَثَلُ - يا وَلَدي - ضَرَبْتُهُ لَكَ ؛ لِتَعْلَمَ صَنيعَ عَمْرِو بْنِ سَعيدٍ ، وَمُخادَعَتَهُ عَبْدَ المَلِكِ ، وَسَعْيَهُ في الكَيْدِ لَهُ ، وَحِرْصَهُ عَلى اغْتِصابِ مُلْكِهِ ، وَتَحْصينَهُ لِدِمَشْقَ بَعْدَ أَنِ اغْتَصَبَها .»

سَمِعَ عَبْدُ المَلِكِ حِكْمَةَ الشَّيْخِ ؛ فَانْفَرَجَتْ أَساريرُ وَجْهِهِ ، وَزالَ عَنْهُ العُبوسُ ، وَسُرَّ سُروراً بالِغًا ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلى الشَّيْخِ قائِلاً : « أَيُّها الشَّيْخُ ، جَزاكَ اللهُ عَنّي خَيْراً ؛ فَقَدْ أَثْلَجْتَ صَدْري ، وَأَزَحْتَ الغَمَّ عَنْ نَفْسي ، وَفَرَّجْتَ كَرْبي . وَإِنّي أُريدُكَ أَنْ تَجْعَلَ بَيْني وَبَيْنَكَ مَوْعِداً ، وَتُعَرِّفَني مَكانَكَ ؛ لأَلْقاكَ بِهِ بَعْدَ يَوْمي هَذا .»

قالَ الشَّيْخُ : « وَماذا تَبْتَغي مِنْ وَراءِ ذَلِكَ ؟»

« أُريدُ أَنْ أُكافِئَكَ عَلى ما أَسْدَيْتَ إِلَيَّ مِنْ نُصْحٍ ، وَما غَمَرْتَني بِهِ مِنْ فَضْلٍ .»

« لَقَدْ قَطَعْتُ بَيْني وَبَيْنَ اللهِ عَهْداً أَلا أَقْبَلَ عَطِيَّةً مِنْ بَخيلٍ .»

« وَما أَدْراكَ أَنَّني بَخيلٌ ؟»

« لأَنَّكَ أَخَّرْتَ العَطِيَّةَ ، وَأَنْتَ قادِرٌ عَلى الوَفاءِ بِها . ماذا يَمْنَعُكَ مِنْ أَنْ تُعْطِيَني مُكافَأَةً بَعْضَ ما عَلَيْكَ ؟»

قالَ عَبْدُ المَلِكِ : « عَفْواً يا عَمّ ، وَمَعْذِرَةً ! فَقَدْ ذَهِلَتْ نَفْسي !»

ثُمَّ نَزَعَ عَبْدُ المَلِكِ سَيْفَهُ ، وَقَدَّمَهُ جائِزَةً سَنِيَّةً إِلى الشَّيْخِ ، وَقالَ لَهُ : « اِحْرِصْ عَلَيْهِ ، يا سَيِّدي ؛ فَقيمَتُهُ تَزيدُ عَلى العِشْرينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ .»

قالَ الشَّيْخُ في أَنَفَةٍ وَكِبْرِياءَ : « وَأَنا ، يا وَلَدي ، لا أَقْبَلُ عَطِيَّةً مِنْ ذاهِلٍ . فَدَعْني وَرَبِّي الَّذي لا يَبْخَلُ وَلا يَذْهَلُ .»

فَلَمّا سَمِعَ عَبْدُ المَلِكِ كَلامَ الشَّيْخِ عَظُمَ في عَيْنَيْهِ ،

وَازْدادَ بِهِ إعْجاباً ، وَلَهُ إكْباراً ، وَعَلِمَ فَضْلَهُ في عِلْمِهِ وَدينِهِ وَخُلُقِهِ ، فَقالَ لَهُ : « أَيُّها الشَّيْخُ ، أنا عَبْدُ المَلِكِ - فارْفَعْ حَوائِجَكَ إلَيَّ ، وَاطْلُبْ مِنّي ما تَشاءُ ، مَتى تَشاءُ .»

قالَ الشَّيْخُ في عِزَّةٍ بالِغَةٍ : « وأنا - أيْضاً - عَبْدُ المَلِكِ ، فَهَلُمَّ بِنا نَرْفَعْ حَوائِجَنا إلى مَنْ أنْتَ وَأنا لَهُ عَبْدانِ .»



الينابيع تتفجر من التراث العربي الأصيل، ومن السير الشعبية الغنيَّة، ومن الحكايات الشعبية العربيَّة؛ لتصوّر نماذج مضيئة من تراثنا، وتعرض قيمًا مشرقة في حياتنا: تمزج بين الجد، والفكاهة في لغة هادئة راقية: لا تعلو فتعوق القارئ وتصده، ولا تسفُّ فتهبط بذوقه ومستواه، وإنما تمتع وجدانه وقلبه، وتثري فكره وعقله.

الينابيع



مَكتبة لبنان نَاشِرُون

الشركة المصريّة العالميّة للنشر - لونجمان